مقـــــدمة:

يتناول البحث آليات الحجاج اللغوي، التي تبرز الوظيفة الحجاجية والإقناعية للغة، التي تظهرها النصوص بشكل كبير. من خلال التطبيق على خطاب يمثل ظاهرة خاصة في الأدب العربي، ويعكس سياقًا اجتماعيًا معينًا ساد في حقبة تاريخية مهمة من تاريخ الأدب العربي، وهو خطاب التطفيل ونصوصه' وهي نصوص أنتجتها فئة اجتماعية تعرضت للتهميش والنبذ الاجتماعي، حيث سلكت مسلكًا اجتماعيًّا لا يقره المجتمع العربي بعاداته وتقاليده، وهو حضور الولائم والأعراس للحصول على الطعام، دون دعوة أو رغبة من صاحب الطعام، تلك الفئة المعروفة بـــــ (الطفيليين) الذين كانوا يتحسسون أخبار الموائد والولائم، يزاحمون ويتقحَّمون، ويتعرضون في سبيل ذلك، للسب والشتم واللكز والطرد أحيانا، فهم يرون الظفر بأنواع الطعام وصنوفه، التي تعج بها الموائد في المناسبات والاحتفالات، ظفرًا يستحق أن يُبذل فيه ماء الوجه، مستهينين بكل ما يتعرضون له من أذى وامتهان.

يسعى البحث للكشف عن أبرز أدوات الحجاج اللغوية في نصوصهم، التي تؤسس للتطفيل وتعتز به وتتبناه موقفًا وسلوكًا اجتماعيًّا خاصًا من خلال التساؤلات الآتية:

- هل حاول الطفيليون استمالة القلوب والعواطف لكسب التعاطف الإنساني مع موقفهم فحسب، أم حاولوا إقناع العقل بالحجة والدليل المقنع والمقبول بسلامة موقفهم الذي ذهبوا إليه لإقراره وقبوله اجتماعيًّا ونفسيًّا أم الاثنين معًا ؟
- هل سعوا من خلال توظيف إمكانات اللغة الحجاجية والإقناعية إلى إقناع المتلقي بقبول التطفيل والتسليم به على حساب ما تعارف عليه المجتمع من عادات وتقاليد، أم كان سعيهم فقط من أجل إقناع أصحاب الولائم لتركهم يظفرون بالطعام قانعين بهذه النتيجة ؟

عينة الدراسة:

اعتمد البحث في التطبيق على نصوص الطفيليين التي وردت في كتاب: التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم ونوادر أشعارهم للخطيب البغدادي، بعناية بسَّام عبد الوهاب الجابي (دار ابن حزم- ١٩٩٩م) في طبعته الأولى.

ويمكن تحديد أهداف البحث في الآتي:

١- إلقاء الضوء على السمات الحجاجية في خطاب الطفيليين الذي تبنوا من خلاله موقفـــهم الخاص.

٢- الكشف عن إمكانات اللغة التي وظفها الطفيلي لتدعيم موقفه الذي يتعارض مع طبيعة المجتمع.

٣- استخلاص أهم الأدوات اللغوية التي أدت دورًا حجاجيًّا في أدب الطفيليين.

وقد اعتمدت في البحث على المنهج الوصفي التحليلي؛ في وصف آليات الحجاج اللغوية، التي شاعت في نصوص التطفيل وتحليل هذه النصوص التي تضمنت هذه الآليات ووظفتها.

بدأ البحث بالجانب النظري، وقد تضمن: المقدمة، والتمهيد، والحجاج في الدرس العربي القديم، والعلاقة بين الحجاج والاستدلال والإقناع والبرهان، والطبيعة الحجاجية للغة، وأهـــم التقنيات اللغوية للحجاج، يليه الجانب التطبيقي، وقد تناولت فيه ما جاء من آليات الحجاج اللغوي في خطاب التطفيل وهي: الحجاج بالنص الديني، وبالسؤال والجواب، وحجاج الطفيلي في التعريف بنفسه، وأفعال الكلام ودورها الحجاجي، ومصاحبات الكلام الحركية والإشارية، وتعدد أساليب الوصف والسرد والتمثيل، والتفصيل بعد الإجمال، والحجاج المعلوماتي، وحجاج المأزق (الإحراج الاجتماعي)، والفكاهة والظرف، وأساليب النداء، وأساليب التعليل والتركيب والشرط، وأساليب القصر والحصر،والقسم، والإغراء والتحذير، والتخيير، والتفضيل، والحجاج العاطفي، والتوظيف الحجاجي للعدد والوقت والثمن، ثم إلى أي مدى نجح الطفيلي في تأسيس موقفه الاجتماعي، وختمت بنتائج البحث.

التمهيد:

الحجاج نظرية شاملة، أطرافها ممتدة في ميادين ومجالات معرفية متنوعة؛ منها الفلسفي والمنطقي العقلي والبلاغي واللساني وغيرها، لذلك يغلب عليها التعقيد والتداخل بسبب كثرة روافدها ومنابعها وتباين التخصصات التي تتناولها. أما الحجاج اللغوي فهو يندرج ضمن النظريات الدلالية الحديثة التي تقدم تصورات جديدة حول المعنى، وتقترح مقترحات جادة حول كثير من القضايا والظواهر اللغوية.[١] ومصطلح الحجاج تناوله عدد كبير من الباحثين، وقد حظي بعدد كبير من التعريفات منها:

- **"حد الحجاج أنه كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها "[٢]**
- **الحجاج هو:"وسيلة المتكلم في جعل المتلقي يتقبل آراءه واتجاهاته وانتقاداته وتوجيهاته "[٣]**
- **"هو أن يقدم المتكلم قولًا (ق١) (أو مجموعة أقوال) موجهة إلى جعل المخاطب يقبل قولًا آخر (ق٢) (أو مجموعة أقوال) أخرى سواء أكان (ق٢) صريحًا أم ضمنيًّا" [٤]**
- **" هو تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة، وهو يتمثل في إنجاز متواليات من الأقوال بعضها بمثابة الحجج اللغوية، وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها"[٥]**
- **" مجموعة من الاستراتيجيات الخطابية لمتكلم ما، يتوجه بخطابه إلى مستمع معين من أجل تعديل الحكم الذي لديه عن وضع محدد"[٦]**

---

[١]- د. أبو بكر العزاوي : اللغة والحجاج ص٨-٩.

[٢]- طه عبد الرحمن : اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ص ٢٢٦.

[٣]- يمينة تابتي: الحجاج في رسائل ابن عباد الرندي ص٢٨٤.

[٤]- شكري المبخوت، ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ص٣٦٠.

[٥]- أبو بكر العزاوي: الحجاج في اللغة، بحث منشور ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته ١/ ٥٧.

[٦]- عبد العزيز السراج: التواصل والحجاج. أي علاقة، بحث منشور ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته ٢٨٢/١.

- " مظهر من مظاهر القوة الباطنية التي تتوسل بشتى السبل للوصول بالمتلقي إلى درجة التأثير أو الاقتناع بل قد تدفع الفرد والجماعات نحو تغيير السلوك أو إنجاز الفعل"[٧]
- " توجيه خطاب إلى متلق ما لأجل تعديل رأيه أو سلوكه أو هما معا، وهو لا يقوم إلا بالكلام المتألف من معجم اللغة الطبيعية"[٨]
- "الحجاج عبارة عن تصور معين لقراءة الواقع اعتمادًا على بعض المعطيات الخاصة بكل من المحاجج والمقام الذي يولد هذا الخطاب"[٩]
- الحجاج عبارة عن "دراسة لطبيعة العقول ثم اختيار أحسن السبل لمحاورتها، والإصغاء إليها، ثم محاولة حيازة انسجامها الإيجابي والتحامها مع الطرح المقدم. فإذا لم توضع هذه الأمور النفسية والاجتماعية في الحسبان؛ فإن الحجاج يكون بلا غاية وبلا تأثير.[١٠]
- والحجاج في رأيي هو عبارة عن: مهارة تواصلية يوظف فيها المتكلم ثقافته معارفه وخبراته ولغته لتحقيق غايته في إقناع المخاطب بصحة موقفه من قضية ما، وتفنيد وجهات النظر الأخرى وإبطالها.

أولاً: الحجاج في الدرس العربي القديم:

ظهر الحجاج في الدرس العربي قديمًا، خاصة في الدراسات القرآنية، والحديث النبوي، والدرس الفلسفي، واللغوي، ومجالس العلماء ومناقشاتهم، كما ذُكر الحجاج في القرآن الكريم بألفاظ متعددة، في آيات كثيرة من القرآن الكريم، منها قول الله –تعالى–:

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلۡعَظِيمُ أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَانِ ٱلرَّجِيمِ أَعُوذُ بِٱللَّهِ .. ﴾(البقرة: ٢٥٨)

وقوله تعالى: ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ صدق الله العظيم بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴾ (النساء:١٠٧) ،

---

[٧]– علي محمد علي سلمان: كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج ص٨٥.

[٨]– محمد الولي: مدخل إلى الحجاج أفلاطون وأرسطو وشاييم بيرلمان ص١١.

[٩]– محمد سالم الأمين: مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة ص٦١.

[١٠]– عبد الحليم بن عيسى: البيان الحجاجي في القرآن الكريم "سورة الأنبياء أنموذجًا" ص٤.

ذكر ابن عاشور أن المجادلة مفاعلة من الجدل، وهو القدرة على الخصام والحجة فيه، وهي منازعة بالقول لإقناع الغير برأيك.[١١]

وقد ظهر من خلال تفسير ابن عاشور أن الحجاج عنده مرادف للجدل "الجدل المدافعة ليظهر الحق أي دفع السائل، وعلم الجدل هو العلم الذي يُعرف فيه صحيح الدفع وفاسده.

ثانيًا: العلاقة بين الحجاج والاستدلال والإقناع والبرهان:

الاستدلال والإقناع والبرهان، هي المصطلحات الأبرز إلى جانب الحجاج في النظرية الحجاجية، وبهذه المصطلحات تتحدد سمات الخطاب الحجاجي. يمثل الاستدلال السياق العقلي للحجاج، أي تطوره المنطقي، ذلك أن النص الحجاجي نص قائم على البرهنة، فيكون بناؤه على نظام معين تترابط فيه العناصر وفق نسق تفاعلي، وتهدف إلى غاية مشتركة، ومفتاح هذا النظام لساني بالأساس، فإذا أعدنا النص الحجاجي إلى أبسط صوره وجدناه ترتيبًا عقليًّا للعناصر اللغوية، ترتيبًا يستجيب لنية الإقناع.[١٢] والحجاج متصل بالعلاقات بين الأقوال في النصوص والخطابات، في حين أن الاستدلال متصل بالعلاقات بين القضايا التي نحكم عليها، إما بالصدق وإما بالكذب.[١٣]

وقد حاول بعض الباحثين في الحجاج تحديد الفروق بينهما، وذلك أن الإقناع هو ما به يحاول الإنسان إقناع نفسه، في حين أن الحجاج هو ما به يحاول إقناع الآخر، وذلك بوسائط كثيرة، منها ما يعود للغة وما توفره من بُنى وأساليب ومفردات وتراكيب وروابط مؤثرة حجاجيًّا.[١٤] وهذا الكلام غير دقيق؛ فالإقناع محاولة موجهة إلى طرف آخر، أما الاقتناع فهو عملية داخلية يقوم بها الشخص نفسه، والحجاج هو التنسيق بين الأقوال وترتيبها لتصبح مقدمات تدفع بالمتلقي نحو النتيجة المقصودة وهي الإقناع.

---

[١١]- ابن عاشور: التحرير والتنوير٣/٣٢.

[١٢]- سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، بنياته وأساليبه ص٢٧.

[١٣]- محمد سالم الأمين: الحجاج في البلاغة المعاصرة. بحث في بلاغة النقد المعاصر ص١٩٤

[١٤]- عزالدين الناجح: المفهوم من خلال الملفوظ الإشهاري ص ٢٧١.

الحجاج يهدف إلى تحليل التقنيات الخطابية التي تسمح بإحداث ميل السامع إلى الأطروحات التي نعرضها على مسامعه أو التي تسمح بتعديل ذلك الميل ، أو تلك التي تتيح الظفر بإذعان السامع أو زيادة هذا الإذعان للدعاوى المعروضة لتصديقها، وهذا ما يجعل الاختلاف بين الحجاج والبرهنة أمرًا من قبيل المسلمات؛ أما البرهنة: فهي استنباط يهدف إلى الاستدلال على صدق النتيجة أو نسبة احتماليتها القابلة للحساب، وذلك انطلاقًا من المقدمات المعتبرة صادقة أو محتملة، وفي تقابل مع البرهنة التي يمكن أن تتخذ شكل حساب،فإن الحجاج يُطلب به الإثبات والإقناع.[١٥]

الحجاج لا يستند إلى حقائق عامة، ولكن إلى أفكار وآراء تهتم بأطروحات كل طائفة،كما أن مجال تطبيق النظرية الحجاجية أوسع من مجال تطبيق نظرية البرهنة، فالحجاج يقوم على كل ما هو موضوع إبداء رأي، والبرهنة تطرح أدلة ضرورية وملزمة، أما أدلة الحجاج فهي لصالح قضية أو أطروحة محددة أو ضدها، ويمكن للطرف الآخر تفنيدها.

لا يقع الحجاج في الأمور القطعية الثابتة، ولا في الحقائق المؤكدة وإنما يكون الحجاج فيما يقع فيه الاختلاف، إنما يكون الحجاج (كما يقول بيرلمان) فيما هو مرجح وفيما هو ممكن وفيما هو محتمل، كما أن الأدلة التي تقدمها المحاجة ليس من شأنها أن تكون حاسمة فاصلة فيما تثبت أو تنفي، بحيث تقرر ما تقرره أو تنفي ما تنفيه على سبيل الحقيقة المؤكدة الراسخة، التي لا تقبل شكًّا، أو لا تقبل احتمال خطأ ما تثبته أو صحة ما تنفيه، إذ ليس لمسألة ما تدور حولها محاجة حقيقة واحدة أو مطلقة، بل لها حقائق متعددة ومتدرجة، وعلى الأدلة أن ترجح إحداها على الأخرى أو أن تصل إلى ما هو أقرب على الصواب.[١٦]

---

[١٥]- الحجاج: شاييم برلمان، ترجمة: محمد أسيداه ص١٢٤، صابر الحباشة: التداولية والحجاج. مداخل ونصوص ص٦٩.

[١٦]- جميل عبد المجيد: البلاغة والاتصال ص١٠٦.

فالحجاج خطاب لساني تداولي، ينتج عن مجموعة من العوامل، تتمثل في المقام الذي قيلت فيه، والمكان، والزمان، والموضوع، والأسلوب، والهدف الذي يسعى المتكلم إلى تحقيقه، والنتائج العملية والسلوكية التي تحدثها العبارات في المتلقي.[١٧]

ذكر الباجي أن الحجاج يُعد علمًا من أرفع العلوم قدرًا وأعظمها شأنًا، لأنه السبيل إلى معرفة الاستدلال وتمييز الحق من المحال، ولولا تصحيح الوضع في الجدل لما قامت الحجة ولا اتضحت محجة، ولا عُلم الصحيح من السقيم ولا المعوج من المستقيم.[١٨] فالحجاج عند الباجي علم كامل مستقل، كما وصفه بأنه من أرفع العلوم شأنًا وقيمة.

ثالثًا: الطبيعة الحجاجية للغة:

إن الأقوال اللغوية تحمل في جوهرها مؤشرات لسانية ذاتية تدل على طابعها الحجاجي، فاللغة الإنسانية لغة حجاجية ومنطقية من داخل بنيتها اللغوية الداخلية.[١٩] وقد غيرت النظرية الحجاجية نظرة كثير من علماء اللغة والفلاسفة إلى وظيفة اللغة، حيث كانوا يرون أن وظيفة اللغة الأساسية هي الوظيفة الإبلاغية أو الإخبارية الوصفية التي تسعى إلى وصف ما يقع في المجتمع ومحاكاته، إلى النظر إلى اللغة باعتبار أن وظيفتها الأساسية هي الوظيفة الحجاجية التي تسعى للإقناع والتأثير.

فالنظرية الحجاجية اللغوية تقف على القيمة الحجاجية للغة بأدواتها المختلفة، لذلك فإن الغاية التي يسعى إليها الحجاج اللغوي، هي درس التقنيات اللغوية التي من شأنها أن تؤدي إلى التأثير أو الإقناع، أو أن تعلي من درجة التسليم والاقتناع بما يُعرض من أطروحات وما يُتخذ من مواقف. "تهدف نظرية الحجاج عند بيرلمان إلى دراسة تقنيات الخطاب التي تسمح بإثارة تأييد الأشخاص للفروض التي تقدم لهم، أو تعزيز هذا التأييد على تنوع كثافته"[٢٠]

---

[١٧]- شاهر لحسن: علم الدلالة السيمانتيكية والبراجماتية في اللغة العربية ص١٥٧.

[١٨]- أبو الوليد الباجي: المنهاج في ترتيب الحجاج، تحقيق: عبد المجيد تركي ص٨.

[١٩]- جميل حمداوي: نظريات الحجاج ص٣٥.

[٢٠]- صلاح فضل:بلاغة الخطاب وعلم النص ص٦٧.

فالحجاج فعل لغوي تواصلي، يتكون من متواليات قولية، وحجج يصطفيها ويرتبها على نحو مخصوص، يريد بها التأثير في المتلقي وإقناعه، وذلك على سبيل حمل المخاطب على القبول برأي معين في إطار ما يُسمى بـــ "عمل المحاجَّة"[٢١]

تُعد نظرية الحجاج اللغوي التي أسس لها في الغرب انسكومبر وازفالد ديكرو من خلال كتابهما المشترك:"الحجاج في اللغة" اللغة هي الأساس في بناء العملية الحجاجية، وتنطلق من ثلاثة مبادئ رئيسة هي:[٢٢]

١- الوظيفة الأساسية للغة هي الحجاج.

٢- المكون الحجاجي في المعنى أساسي والمكون الإخباري ثانوي.

٣- عدم الفصل بين الدلالات والتداوليات.

فالحجاج فعل لغوي ووظيفة أساسية للغة الطبيعية، وهو موجود في بنية اللغة، فهناك أدوات وروابط وعبارات لغوية يتمثل دورها الأساسي في القيام بالعمليات الحجاجية.

لذلك يرى أبو بكر العزاوي أن الخطاب الحجاجي خطاب لغوي طبيعي عادي احتمالي في نتيجته التي يتوصل إلى معناها بالتأمل في البنية اللغوية، ووسائل الربط المقيدة للحجج والمنسقة بينها، وما يفرق بينهما كونه (الحجاج) مؤسسًا على بنية قولية لغوية متسلسلة داخل نص ما، لا على مقتضى الأقوال المنطقية التي ينشغل بها النص الفلسفي الاستدلالي.[٢٣] وثمة فارق مهم بين الخطاب الحجاجي وغيره من أنواع الخطاب الأخرى، أنه يؤسس على قصدية محددة، وهي نية الإقناع والتأثير في المتلقي، مستخدمًا في سبيل تحقيق ذلك القصد آليات وتقنيات لفظية وغير لفظية، متوجهًا لمتلق مخصوص في موقف معين، ونتائجه احتمالية، لا تتوفر لها درجة اليقين.

كما أن منشئ الخطاب الحجاجي يسلك طريقًا خاصًّا في عرض الحجج والتدرج فيها والتنسيق بينها، ويُراعى كذلك طبيعة المتلقي من الناحية النفسية والاجتماعية والعقلية، عائدًا إلى تحفيزه للمشاركة في الاعتقاد والرأي، ولتحقيق أهدافه، يستنهض

---

[٢١]- شكري المبخوت: نظرية الحجاج في اللغة ص٣٦٠.

[٢٢]- خلية البحث التربوي: الحجاج في درس الفلسفة ص ٥٣.

[٢٣]- أبو بكر العزاوي: الحجاج في الفلسفة ص٨٠ .

كل إمكانات اللغة وطاقاتها في صياغة البنية اللغوية لخطابه ليضمن له التأثير والإقناع. لذلك تكمن أهمية نظرية الحجاج اللغوي في أنها تسلط الضوء على إمكانات اللغة التي تبرز في مواقف تواصلية بين طرفين أو عدة أطراف، تنبني على إرادة التفاعل من خلال تبادل رسائل لغوية تعكس مواقف متباينة بين القبول والرفض وما يتطلبه ذلك من تأييد ودعم لما أسوقه من آراء ومواقف، أو نقص وتفنيد ودحض لما يتبناه الطرف الآخر من أفكار وآراء.

فإذا كان النص الحجاجي نصًّا قائمًا على البرهنة، جاء بناؤه على نظام معين تترابط فيه العناصر وفق نسق تفاعلي، وتهدف إلى غاية مشتركة، ومفتاح هذا النظام لساني بالأساس، فإذا أعدنا النص الحجاجي إلى أبسط صورة وجدناه ترتيبًا عقليًّا للعناصر اللغوية، ترتيبًا يستجيب لنية الإقناع.[٢٤]

وقد حاولت النظرية اللغوية أن تعالج الحجاج باعتباره ظاهرة لسانية، من خلال الاهتمام بالوسائل والإمكانات اللغوية التي يوظفها المتكلم في بناء خطابه بناءً يضمن له تحقيق أهدافه الحجاجية، وهي التأثير والإقناع.

وللخطاب الحجاجي سمات تحدد ملامحه وتميزه عن الأنواع الأخرى للخطاب من أهمها:

- **أساسه الرأي، يُراعى فيه المقام وظروف المخاطَب والخطاب.**
- **شخصي يستند إلى التداول الإنساني.**
- **يسعى لإحداث تأثير عقلي وعاطفي لدى المتلقي.**
- **يتبادل فيه المتلقي المواقع مع المحاجج (تبادل أدوار).**
- **يتألف من حجة ورابط ونتيجة.**
- **الحقيقة فيه غير واضحة.[٢٥]**
- **غايته أنه يهدف إلى التأثير والإقناع ونتائجه احتمالية.**

كما أن هناك سمات للحجة اللغوية أهمها:

---

[٢٤]- سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، بنياته وأساليبه ص ٢٧.

[٢٥]- حامد ناصر الظالمي، عايدة جدوع حنون: مفهوم الحجاج ص ١١٣-١١٤.

- **سياقية، أي أنها تُفسر حسب السياق الذي ترد فيه.**
- **نسبية، كل حجة تحتمل قوة حجاجية معينة (قوية/ أقوى/ضعيفة/أضعف).**
- **قابلة للدحض والإبطال، أي يمكن أن ترفض أو تبطل بحجة أخرى.[٢٦]**

رابعًا: من أهـــم التقنيات اللغوية للحجاج:

إذا كان الحجاج غايته تتلخص في الإقناع، فإنه استعان من اللغة بعدد من الآليات والأدوات والوسائل اللغوية التي تمكنه من ضع إستراتيجية واضحة للإقناع، حيث تركز هذه النظرية على التنوع الشديد للمخاطبين الذين يُوجه لهم الخطاب الحجاجي المكتوب، هؤلاء المخاطبون يتراوحون كميًّا من فرد واحد إلى البشرية جمعاء، ويتراوحون كيفيًّا من مجموعة من العوام المجتمعين في الساحة العامة، إلى الفرق الدقيقة التخصص والعالية الكفاءة، فثمة مخاطَب من صنف خاص، إذ يوازن المتكلم بين الانتصار لشيء أو معارضته.[٢٧] وموضوع الحجاج هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تـــؤدي بالأذهـــان إلى التسليم بما يُعـــرض عليها من أطـــروحات أو أن تزيـــد في درجـــة ذلك التسليم.[٢٨]

من أهم هذه الآليات والتقنيات ما يأتي:

- **الإحالة بنوعيها(مقامية ومقالية).**
- **الحذف، وتكمن القيمة الحجاجية للحذف في كون المرسل يعتمد على المتلقي في ملء الفراغات التي أوجدها في خطابه بسبب الحذف.**
- **الوصل، وهو الترابط بين أجزاء الخطاب.**
- **التكرار، الذي يمثل إلحاحًا على ذاكرة المتلقي بعنصر ما من أجل التأثير.**
- **ألفاظ التعليل والتركيب والشرط.**
- **الأفعال اللغوية وقيمتها الحجاجية.**
- **الحجاج عن طريق أسلوب تحصيل الحاصل.**

---

[٢٦]- أبو بكر العزاوي: الحجاج والمعنى الحجاجي ص٥٩.

[٢٧]- صابر الحباشة: التداولية والحجاج ص٧٠.

[٢٨]- عبد الله صولة: الحجاج، أطره ومنطلقاته من خلال مصنف في الحجاج. الخطابة الجديدة لبيرلمان وتيتكا ص٢٩٩.

- استخدام صيغ صرفية معينة مثل: أفعل التفضيل، وصيغ المبالغة، وغيرها.
- أسلوب التوكيد وأدواته ودرجاته المختلفة.
- استخدام الروابط اللغوية وحروف العطف وقيمتها الحجاجية، مثل: لكن، حتى، فضلًا عن، إذًا، إذ، لو، لاسيما، لأن، بما أن، مع ذلك، ربما، تقريبًا، بيد أن، ما....إلا، من المحتمل، من المؤكد،.....
- الاستشهاد والاقتباس والتضمين من نصوص تمثل حجة أقوى في التأثير والإقناع مثل: (القرآن الكريم/ الحديث الشريف/ الشعر/الحكم/.....)
- استخدام تقنية السؤال والجواب.
- أسلوب النداء والحث والنصيحة.
- أسلوب الترغيب والترهيب والتنبيه.
- أسلوب القسم .
- تقديم الأمر ونقيضه عملًا بقاعدة (بأضدادها تتضح الأشياء)، و(الضد يبرزه الضد)
- توظيف أساليب التمثيل والمقارنة والسرد والوصف...إلخ.
- الفكاهة والظرف.

لذلك يمكن القول أن المكوِّن الأساسي للوظيفة الحجاجية للخطاب، تكمن في بنيته اللغوية بكل عناصرها.

ومن خلال قراءة خطاب الطفيليين في ضوء نظرية الحجاج اللغوي، تتضح أهم التقنيات والأدوات اللغوية التي تم توظيفها حجاجيًّا لتدعيم موقفهم من التطفيل على النحو الآتي:

١- الحجاج بالنص الديني:(القرآن الكريم/الحديث الشريف):

أ- الحجاج بالنص القرآني:

النص القرآني نص حاضر بقوة في خطاب الطفيلي فهو حافظ للقرآن الكريم، سريع البديهة في استدعاء النص، وتوظيفه حجاجيًّا لدعم موقفه وللتغلب على مناظره، من خلال الاستشهاد بالآيات، أو استحضار مضمون القصص القرآني، باعتباره الحجة الأقوى ومن الأمثلة على ذلك:

- ..."فلما جلسوا على الخوان، قال :جعلك الله في البركة كعصا موسى وخوان إبراهيم ومائدة موسى. (ص١٠٩)
- قيل لطفيلي مرة :كيف علمك بكتاب الله؟ قال: أنا من أعلم الناس به، فقيل له: ما معنى قوله: ﴿ إِبْرَاهِيمَ الْحِجْرَ النَّحْلَ الْإِسْرَاءَ الْكَهْفَ مَرْيَمَ طَهَ الْأَنْبِيَاءَ الْحَجَّ الْمُؤْمِنُونَ النُّورَ الْفُرْقَانَ ﴾ (يوسف،آية82)، فقال معناه :واسأل أهل القرية، قيل له :وما الدليل على ذلك؟ قال: كما تقول :أكلت سفرة فلان، وأنت تريد أكلت ما فيها.
(ص١٠٩)
- ومن الأخبار التي تؤكد حرص الطفيلي على استدعاء النص القرآني وتوظيفه لتدعيم موقفه من الطعام "حدَّثني محمد بن على بن الحسن الجلاب، قال :نقش طفيلي على خاتمه(..فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ) (الصافات:٩١)، ونقش بعضهم على خاتمه:(أُكُلُهَا دَآئِمٌ) (الرعد:35) ، ونقش آخر:(ءَاتِنَا غَدَآءَنَا) (الكهف:62)، ونقش آخر:﴿ ﴾ (المدثر:٢٨)
- قال مصعب الزبيري :خرج سالم بن عبد الله متنزهًا إلى ناحية من نواحي المدينة هو وحرمه وجواريه .وبلغ أشعب الخبر، فوافى الموضع الذي هم به يريد التطفيل، فصادف الباب مغلقًا، فتسوَّر الحائط، فقال له سالم :ويلك يا أشعب !معي بناتي وحرمي، فقال:﴿ الذَّارِيَاتِ الطُّورِ النَّجْمِ الْقَمَرِ الرَّحْمَنِ الْوَاقِعَةِ الْحَدِيدِ الْمُجَادِلَةِ الْحَشْرِ الْمُمْتَحَنَةِ الصَّفِّ الْجُمُعَةِ الْمُنَافِقُونَ ﴾ (هود:79) ، فوجه إليه سالم من الطعام ما أكل وحمل إلى منزله. (ص١١٧)
- حدثنا أحمد بن الحسن بن علي المقرئ، قال :سأل أبي بُنانا وأنا أسمع :أتحفظ من كتاب الله شيئًا؟ قال :نعم، آية .قال :ما هي؟ قال: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قال تعالى : ﴾ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ (الكهف:62)

- "..... فيقوم من الخوان وفؤاده أخلى من فؤاد أم موسى، جايع نايع ما معه من العرس إلَّا شم الطعام وتمشيش العظام (ص١٥٠)

وفيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ إِبْرَاهِيمَ الْحِجْرِ النَّحْلِ الْإِسْرَاءِ الْكَهْفِ مَرْيَمَ طٰهٰ الْأَنْبِيَاءِ الْحَجِّ الْمُؤْمِنُونَ ﴾(القصص:١٠)

- قال أبو الحسن بُنان ناصحًا...." وإن كان في المجلس مغنية وغلام حسن الوجه، فاتق الله في نفسك ولا تولع بواحد منهم والزم العافية، وقد قال الله- تعالى- في كتابه:﴿ النَّحْلِ الْإِسْرَاءِ الْكَهْفِ مَرْيَمَ طٰهٰ الْأَنْبِيَاءِ الْحَجِّ الْمُؤْمِنُونَ النُّورِ الْفُرْقَانِ الشُّعَرَاءِ النَّمْلِ الْقَصَصِ الْعَنْكَبُوتِ الرُّومِ لُقْمَانَ السَّجْدَةِ الْأَحْزَابِ سَبَإٍ فَاطِرٍ ﴾(طه:١٣١)

- كان بُنان الطفيلي يقول:"...ثم أتيت بطيفورية رحراحة، فأُقْلِيَت وصيرت في وسطها سمن، فقعد معنا عليها قوم مُجّان لم يعرفوني إلّا بعد، فأخذ بعضهم لقمة، فألقاها في السمن، وقال:﴿ الْعِمْرَانِ النِّسَاءِ الْمَائِدَةِ الْأَنْعَامِ ﴾(الشعراء:94)، وجر إليه السمن، وقال الآخر:(سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا) (الفرقان:12) ، وجر إليه السمن، فذهب؛ قلت: ﴿ ...قٓ الذَّارِيَاتِ الطُّورِ النَّجْمِ ﴾(الحج:45)، وخرقت السمن إليَّ، فقال الآخر: ﴿ الصَّفِّ الْجُمُعَةِ الْمُنَافِقُونَ التَّغَابُنِ الطَّلَاقِ التَّحْرِيمِ الْمُلْكِ ﴾ الكهف:٧١)، وجر السمن، فقلت: ﴿ الْعَنْكَبُوتِ الرُّومِ لُقْمَانَ السَّجْدَةِ الْأَحْزَابِ سَبَإٍ ﴾ (السجدة:27) ، وخرقت السمن إليَّ، فقال آخر وجر السمن إليه: ﴿ الْمُرْسَلَاتِ النَّبَإِ النَّازِعَاتِ ﴾ (الرحمن:٦٦)، فقلت أنا: ﴿ ﴾ ﴿ ﴾ (الرحمن:٥٠) ، وخرقت السمن إليَّ، فقال آخر: ﴿ ﴾ ﴿ ﴾ ﴿ ﴾ ﴿ ﴾ ﴿ ﴾ (القمر:12) ، وجر السمن إليه، فقلت أنا: ﴿ يٰسٓ الصَّافَّاتِ صٓ الزُّمَرِ ﴾(فاطر: 9)، وخرقت السمن إليَّ، فلم أر أحدًا يتكلم، فقلت أنا:

﴿الصَّفِّ الْجُمُعَةِ الْمُنَافِقُونَ التَّغَابُنِ الطَّلَاقِ التَّحْرِيمِ الْمُلْكِ الْقَلَمِ الْحَاقَّةِ الْمَعَارِجِ نُوحٍ الْجِنِّ الْمُزَّمِّلِ الْمُدَّثِّرِ الْقِيَامَةِ الْإِنْسَانِ الْمُرْسَلَاتِ النَّبَإِ﴾(هود:44)،

وخلطت السمن بما بقي من العصيدة، فضحكوا، واختنق واحد منهم، فما زالوا يلطمونه حتى نزلت اللقمة، والحمد لله على سلامته كثيرًا." (ص:١٦٥)

يظهر هذا الشكل من أشكال التناص قوة الحفظ، وسرعة البديهة لدى الطفيلي في استدعاء نص حجة، داعم للحظة التي يعايشها والسلوك الذي يقوم به، فالتناص هنا ليس بين نص ونص، وإنما بين نص وموقف أو سلوك حركي غير لفظي، فمع قيام كل واحد منهم بسلوك حركي تجاه الطعام يضفي عليه صفة المشروعية والجواز أو صفة الفكاهة والدعابة ، حيث نص على أنهم "قوم مجَّان" من خلال مزجه بالنص الذي يلخصه ويعبر عنه بطريقة غير نمطية في بنية التناص القائم على التفاعل بين النصوص والمواقف الحية.

ب- الحجاج بالحديث النبوي:

نجح الطفيلي في توظيف الحديث النبوي الشريف لدعم موقفه من حضور الأعراس والولائم، والاجتماع على الموائد التي لم يُدع إليها، باحثًا عن النصوص التي تحض على إطعام الطعام والكرم والآداب فيه، ومن الأمثلة على ذلك:

"...أخبرنا سليمان المنقري، قال :كنت في دعوة لبعض أصحابنا، وفي القوم طفيلي، فجعل بعض القوم ينظر إليه؛ فقال الطفيلي :يا فتى !ألم ينه النبي –صلى الله عليه وسلم – أن يتبع الرجل بصره لقمة أخيه؟ (ص ١٢٥)

قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: "لا يُتبِعَنَّ أحدُكُم بصرَه لُقمة أَخيه" [كنز العمال، رقم:٤٠٨١٦]

ومن الأحاديث النبوية التي وجد فيها الطفيلي بغيته وما يدعم موقفه قول الرسول – صلى الله عليه وسلم " –طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الأربعة، وطعام الأربعة يكفي الثمانية "وهو حديث صحيح متنا وسندًا، وقد رد به على جاره نصر بن علي أبو عمرو الجَهْضَمِي، وكان الطفيلي قد اعتاد أن يتبعه إلى الموائد، فيكرمه الناس من أجله، وذات مرة تعمد إحراجه، فما أن مد الطفيلي يده للطعام حتى قال

أبو عمرو :أخبرنا دُرُسْتُ بن زياد، عن أبان بن طارق، عن نافع، عن ابن عمر، قال :قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم ": –من دخل دار قوم بغير إذنهم فأكل طعامهم، دخل سارقًا وخرج مغيرًا" [أبو داود، رقم:٣٧٤١]

لم يكتف الطفيلي هنا باستدعاء نص الحديث النبوي الشريف ليحاجج به، وكفى به من دليل وحجة على الخصم، وإنما ضمَّ إلى ذلك محاججة واقعية اجتماعية من خلال ذكره ما يليق وما لا يليق اجتماعيا، ومحاججة علمية دينية وظَّف فيها معرفته بعلوم الحديث سندًا ومتنًا، مفحمًا نظيره فقال: " أنفت لك والله أبا عمرو من هذا الكلام؛ فإنه ما من أحد من الجماعة إلا وهو يظن أنّك تعرض به دون صاحبه، أو لا تستحي أن تتكلم بهذا الكلام على مائدة سيد من أطعم الطعام، وتبخل بطعام غيرك على من سواك، ثم لا تستحي أن تحدِّث عن دُرُست بن زياد وهو ضعيف، عن أَبان بن طارق وهو متروك الحديث !تحكم برفعه إلى النبي – صلى الله عليه وسلم –والمسلمون على خلافه، لأن حكم السارق القطع، وحكم المغير أن يعزّر على ما يراه الإمام؛ وأين أنت عن حديث حدّثناه أبو عاصم النبيل، عن ابن جُرَيْج، عن أبي الزبير، عن جابر، قال :قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم: " طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الأربعة، وطعام الأربعة يكفي الثمانية" [البخاري، رقم:٥٣٩٢، ومسلم، رقم:٢٠٥٩]

واجه الطِفيلي خصمه بحزمة من الحجج؛ منها ما هو مؤسس على قِيَم وأعراف اجتماعية، ومنها ما هو مؤسس على علمه بالمنهج العلمي في علم الحديث ورواته ومراتبهم، ومنها ما هو مؤسس على معرفة بأحكام الدين كحكم السارق والمغير، حتى استطاع أن يفحمه، بشهادة الخصم نفسه" قال نصر بن علي: فأفحمني، فلم يحضرني له جواب. (ص١٢٧)

ولما كانت الثقافة أداة مهمة من أدوات الحجاج، لزم المحاجج أن يمتلك ثقافة واسعة يستعين بها في حجاجه؛ فبقدر ما تملك من ثقافة بقدر ما تملك من حجج، وقد أسس الطفيلي خطابه الحجاجي هنا مستعينًا بثقافته الواسعة، وقد تضمنت نصوص الطفيليين ألوانًا متعددة من ثقافة عصرهم؛ في الدين والأدب والتاريخ واللغة وغيرها من نصائح أبي الحسن بُنان محذرا من شرب الخمر قال ":وإذا كان في المجلس خمر، فاتق الله ولا تشرب منه، ولا تقعد في مكان يكون فيه ؛ وحدّثني على بن سهل المُغيرة عن النبي –

صلى الله عليه وسلم –قال: " من شرب الخمر فاجلدوه، وإن عاد فاقتلوه" [مسند أحمد، رقم:١٦٨٦٤] (ص١٥٧)

وفي توظيف هذا الحديث ما يدل على الالتزام الديني والأخلاقي من جانب الطفيلي.

- ومن الأحاديث النبوية التي حاجج بها الطفيلي في التعجل في طلب الطعام والتي يُدَعّم بها قول بُنان: إذا دُعيت إلى دعوتين، فأجب أقربهما بابًا إليك . وأن السنة النبوية قد جاءت بمثل ذلك في قول النبي – صلى الله عليه وسلم ": –إذا اجتمع الدَّاعيان فأجب أقربهما بابًا، فإن أقربهما بابًا أقربهما جوارًا، فإذا سبق أحدهما فأجب الذي سبق" [أبو داود، رقم:٣٧٥٦]

(ص١٦٣)

- وعن عائشة قالت: يا رسول الله! إن لي جارين، فإلى أيهما أُهدي؟ قال:" إلى أقربهما منك بابًا" [البخاري، رقم:٢٢٥٩]

يعتبر الاستشهاد من أقوى أساليب الحجاج التي يلجأ إليها المتكلم، لدعم فكرته وموقفه الحجاجي ودحض حجج خصومه، خاصة النصوص الدينية؛ فهي تمثل استراتيجية واضحة ومباشرة للإقناع بأهمية ما يذهب إليه ويؤيده.

٢– الحجاج بالسؤال والجواب:

تضمنت وصية بُنان لرجل، إذا دُعي إلى وليمة عددا من الأسئلة منها:

- فأجيء إلى دارك أدخلها بإذنك فآكل وأزل للصبيان معي؟ فقال :نعم.

(ص١٠٨)

- كيف علمك بكتاب الله؟ قال :أنا من أعلم الناس به. (ص١٠٩)
- ما بالك أصفر اللون؟ فقال :من الفترة التي بين الغضارتين أخاف أن يكون الطعام قد فني. (ص١١٠)
- قيل لبعض الطفيليين :أتحب أبا بكر وعمر؟ قال :ما ترك الطعام في قلبي حبًّا لأحد. (ص١١١)
- أي شيء أحب إليك أن يتفق؟ فقال: دعوة قريبة في يوم مطير.

(ص١١١)

- فإيش عليك؟ قال: لعنة الله. (ص١١١)

- قال: أدخُل؟ فدخل. (ص١١٢)
- أي شيء جلوسكم؟ قالوا: قد بعثنا نجئ بلحم. (ص١١٢)
- ما تطبخون؟ فقال الطفيلي: كباب أروج. (ص١١٢)
- لمن هذه الدار؟ ثم قال مجيبًا لنفسه: لك يا فاعل حتى يخرج منازع. (ص١١٣)
- كم أربعة في أربعة؟ (ص١١٣)
- يا هذا: قلت لك تجيء؟ فقال الطفيلي :قلت لي لا تجيء؟ (ص١١٤)
- يا هذا !أما تخاف الله؟ رأيت أهلي وبناتي. (ص١١٦)
- كيف تصنع إذا لم يتركوك تدخل إلى عرس؟ قال :أنوح على الباب حتى يتطيروا مني فيدعوني. (ص١١٩)
- يا فتيان! إيش صناعتكم؟ قالوا :الطفيلية، قلت :فإيش عندكم في هذا الأمر الذي وقعنا فيه؟ قالوا: ما عندنا فيه حيلة. قلت :فإذا احتلت لكم حتى تأكلوا وتنولوا، تقرون لي أني أعلمكم بالتطفيل؟ قالوا :ومن تكون بالله؟ قال :أنا ابن دَرَّاج؛ قالوا قد أقررنا لك قبل أن تحتال لنا. (ص١٢١)
- من أي شيء طال رأسك؟ قال :من مزاحمة الأبواب؛ أي :يعصرونه مع الحائط بالأبواب. (ص١٢٢)
- مَن يصبر على السميذين الأبيض والأصفر، والجداء المرضع، والفالوذج المعقود؟ (ص١٢٨)
- أتحفظ من كتاب الله شيئًا؟ (ص١٤٠)
- استأذنت في هذا صاحبنا؟ فقال :يا شيخ !وهذا يُستَأذن فيه أحد؟ قلت :أسكرانٌ؟ تريد أن تغرم أحدهم أكثر مما أكل وتنغص عليه؟ ... قال الخباز : فهل لك أن تكفيني مؤنته ولك نصف ما أصبت؟ فقلت :أفعل. (ص١٣٣)
- تأكل باذنجان يباع مئة بدانق، وتدع صدور الدجاج الذي يباع دجاجة بدينار؟ ما أقل علمك! (ص ١٤٢)
- الساعة، وإلى ساعة، وإيش فاتني؟ (ص١٤٩)
- وما لي أكون من السُبَّق؟ (ص١٤٩)

- ولمَ أكون أنا أول الناس؟ (ص١٤٩)
- يا بُنان !ما هذا؟ أتفعل هكذا؟ قال :إنه أصلحك الله مشاع غير مقسوم. (ص١٥٥)
- ما تقول في الفالوذج؟ فقال :هو والله من طعام أهل الجنة. (ص١٥٥)
- أي الطعام وجدت أطيب؟ قال :ما اتسع صدر صاحبه. (ص١٦٢)
- كيف ذاك ونحن لا نعرفك؟ فقال :إذا رأيت صاحب الدار عرفني....هل قلت أيدك الله لطباخك أن يصنع طعامك زائدًا على عدد الحاضرين ومقدار المدعوين؟ فقال : نعم !قال :فإنما تلك الزيادة لي ولأمثالي. (ص١٧٢)

إن استخدام الطفيلي لطريقة السؤال والجواب يُنشئ حوارًا ويزيد من فاعلية الخطاب، ومن نشاط المتلقي وينبه الذهن للتجاوب مع ما يطرحه الخطاب، ويجعل كلا من المرسل والمستقبل يتبادلان الأدوار في، يبني أحدهما رده على سؤال الآخر، فيصلان إلى الأثر أو النتيجة المقصودة معًا. والاستفهام الذي يخرج عن الغرض الحقيقي إلى أغراض أخرى مجازية كالإنكار، والاستغراب، والتوبيخ، والتقرير، وغيرها من الإغراض التي تبرز تداولية للغة ووظيفتها الإقناعية.

٣- حجاج الطفيلي في التعريف بنفسه:

لم يخل جواب الطفيلي عن سؤال: من أنت؟ من الحجاج، حيث جاءت لغته حجاجية حتى في تقديم نفسه، فكلما سئل: من أنت؟ في كل مرة كان يقدم نفسه بطريقة تنطوي على قدر من الحجاج، فلم يذكر اسمه صراحة أو كنيته أو لقبه – كما جرت العادة في هذه المواقف- حيث أعرض عن الرد الصريح، ولجأ إلى الوصف نثرًا و شعرًا، ومن أمثلة ذلك:

- طَفَّل رجل مرةً على رجل، فقال له صاحب المنزل :من أنت؟
  فقال :أنا الذي لم يحوجك إلى رسول. (ص١١٤)
- جاء طفيلي إلى دار رجل له عرس، فقال له صاحب العرس :من أنت؟
  قال :أنا الذي قال فيّ الشاعر: (ص١١٥)
  نَزوركم لا نُكافيكم بجفوَتكم إن الحبيب إذا لم يُستزر زارا.

- فقال له البواب :من أنت؟ قال :أراك ليس تعرفني !أنا الذي بعثوني أشتري لهم الأقداح . ففتح له، فدخل. (ص١١٦)
- من أنت لا حياك الله؟

فقال :أنا دُكَيْن الراجز؛ فأدخله. (ص١٢٠)

- من أنت عافاك الله؟ فقال :أنا الذي أقول: (ص١٣٤)

كل يوم أَدور في عَرْصة البا ... بِ أَشم القُتارَ شمَّ الذُباب
فإذا ما رأيت آثار عُرس ... أو خِتانٍ أو دعوة لصحابِ
لم أُعرج دون التَّقحم فيها ... غيرَ مُستأذن ولا هيَّاب
مستخفًّا بمن دخلت عليه ... لست أخشى تجهم البَوَّاب
فتراني ألُفُّ بالرغم منه ... كل ما قدموه لف العُقاب
ذاك أهنأ من التكلف والكـ ... ـد ونَقْد البقال والقصَّاب
قائل : إن جرى عليَّ امتهان ... في سبيل الحَلواء والجُوذاب

قدم الطفيلي نفسه بمقطوعة شعرية، لم تتضمن اسمه، ولم يصرح فيها أنه "طفيلي"، لكنها تضمنت موقفه الاجتماعي، وإصراره على اغتصاب الطعام رغم أنف صاحب الوليمة، كما أشارت إلى بخله وعدم رغبته في الإنفاق، حتى لو تعرض في سبيل ذلك للامتهان، مما يدل على أن التطفيل موقف اجتماعي مقصود، لم يكن سببه الحاجة إلى الطعام فحسب. لا أدل على ذلك من كلمات مثل:

(شم الذباب، عرس، ختان، ودعوة أصحاب، التقحم، غير مستأذن، مستخفًا، ألفُّ، أهنأ، التكلف، الحلواء، الجوذاب،.....) هذه الكلمات وغيرها، لا تعكس العوز والحاجة لسد الرمق والفاقة.فدلالتها على الشره وشهوة الطعام والإسراف فيما هو مجاني منه واضحة، كذلك البخل وعدم الرغبة في التكلف والإنفاق يدل على امتلاكهم ما يكفي ويزيد." ... فآكل شهوتي برغمه، وأعاود بعد بعد الكِظَّة لأَغمه، لا أُنفق درهمًا، ولا أُتعِب خادمًا..." (ص ١٢٤)

- أتى بُنان قومًا ليدخل إليهم، فقالوا له :من أنت؟ قال :الذي كفيتكم مؤنة الإرسال إليّ. (ص١٦٢)

- إيش أنت؟ – يعني ما أنت؟ قال :أطال الله بقاء الأمير !أنا رجل أشهد هذه الولائم دعيت أو لم أدع. (ص١٦٥)
- من تكون أعزك الله؟ فقال :أنا أول مَن دُعِي إلى هذا الحق. (ص١٧١)

٤– أفعال الكـــلام ودورها الحجـــاجي:

تذهب "نظرية أفعال الكلام" إلى أن اللغة عبارة عن إنجاز أعمال مختلفة في آن واحد، القول ما هو إلا واحد منها، فعندما نتكلم؛ إما أن نخبر عن شيء ما ، أو يتضمن كلامنا تصريحا ما ، أو نأمر ، أو ننهى ، أو نعد، أو نشكر أو.....

فكل قول لغوي يعبر عن أفعال وأحداث حقيقية ، وكل فعل في اللغة يتبعه ويترتب عليه أفعال وأحداث، فالتلفظ بألفاظ الزواج أو الطلاق مثلا أو البيع أو النطق بالحكم، وغيرها من الأقوال اللغوية التي تتضمن أفعالا، ينبني عليها نتائج وآثار عملية في الواقع.

قسم "أوستن" الفعل الكلامي الكامل إلى ثلاثة أقسام فرعية هي:[٢٩]

١–فعل كلامي، أو الفعل الخطابي؛ ويقصد به فعل النطق أو التلفظ بالكلام اللغوي الصحيح والمفيد للمعنى، وهو مجرد تلفظ أو قول (قال بأن....)، والتلفظ يعني أنك تفعل شيئًا.

٢–فعل متضمن في القول (قوة فعل الكلام)، وهو فعل غير لفظي، أو الفعل الذي يقصده المتكلم بالقول مثل: الأمر والنهي والاستفهام و.... وهي مجموعة الأفعال التي تتضمن ما أطلق عليه (أوستن) "القوى الإنجازية" أي أن تتضمن الأقوال أفعالا ....، وهذه الأفعال هي التي انبنت عليها النظرية.

٣–فعل تأثيري وهو الفعل الناتج عن القول (لازم فعل الكلام) : وهو الفعل الذي يقوم به المتلقي كاستجابة للنوع الثاني، ويعتبر نتيجة وأثرًا مترتبا عليه مثل: الرد على سؤال، أو امتثال لأمر، أو رفضه .....ومثَّل له بأفعال مثل: منعني، أقنعني، أغضبني،.....

فإذا قلت: لا تدخن؛ فإن نطقها يمثل الفعل الكلامي، والنهي فيها يمثل الفعل الإنجازي، ورد فعل المخاطب بالقبول أو الرفض يمثل الفعل التأثيري.

---

[٢٩] – أوستن: نظرية أفعال الكلام العامة (كيف ننجز الأشياء بالكلام)، ترجمة: عبد القادر قنيني ص١١٤ وما بعدها.

وتركز هذه النظرية على القول وعلاقته بالفعل، وتتحقق الأفعال الإنجازية من خلال؛ الاستفهام، والأمر، والنهي، والنداء، والتمني، وكل ما يُطلب به إحداث فعل.

ومن أبرز سمات فعل الكلام: القصدية، والإنجازية، ونية التأثير في المتلقي، فردًا كان أم جماعة، لذلك فإن وظيفة الفعل الكلامي تداولية وحجاجية إقناعية في الوقت ذاته.([٣٠])

وقد كثرت الأفعال الإنجازية في خطاب التطفيل وتنوعت بشكل كبير من ذلك ما جاء في الأمر والنهي والمزاوجة بينهما:

".... افتحوا أفواهكم، وأقيموا أعناقكم، وأجيدوا اللف، وأشرعوا الأكف، ولا تمضغوا مضغ المتعللين، الشباع المتخمين؛ واذكروا سوء المنقلب، وخيبة المضطرب" (ص١٠٩)

"... امضِ فاشتري لنا....قُم فاطبخ؛ ... قُم فأثرد؛...قم فاغرف؛.... قم الآن فكُل" (ص١١٣)

"... إذا دخلت عرسًا فلا تلتفت تلفت المريب، وتَخَيَّر المجالس، فإن كان العرس كثير الزحام فأمر وانه، ولا تنظر في عيون .... فابدأ به ومُره وانهه ... وعليك بكلام بين النصيحة والإدلال" (ص١٢٩)

"لا تجزعن...وادخل...لِتَلفَّ...واطرح...لا تلتفت...وعليك...وتنقلن..."(ص١٢٩-١٣٠)

" لا تسمعن...وعليك... ودع... فاضرب... لا تُقلِعن... ارفعوا... فاقصد... واترك..." (ص١٣٠)

" ... لا تخالفني... كُل من الأحمر...وبَقِّ نفسك...كل منها لقمة أو لقمتين أو ثلاثة...كل لقمة أو لقمتين ...لا تأكل إلا لقمة أو لقمتين ولا تكثر...وأولغ بهذا ...كل لقمة أو لقمتين...لا تأكل منه شيئًا وبق نفسك...ائت من تحت حتى ينهار...كل وأكثر...أزوج وثلِّث...كل ولا تقصر." (ص١٥٤)

"...فاقعد في وسط الدار.... وادع بالشراب...ولا تصب فيه الماء...فلا تقعد في الصدر ...فاقعد بجنب الباب ...فاجذب منها إليك ولا تأمن أن تذهب ... وكن ذنبًا ولا تكن رأسًا

- [٣٠]- بلقاسم دفة: استراتيجية الخطاب الحجاجي: دراسة في تداولية الإرسالية الإشهارية العربية ص٤٩٢.

...فاتق الله في نفسك ولا تولع بواحد منهم والزم العافية ... فاتق الله ولا تشرب منه "
(ص١٥٦-١٥٧)

راوح الطفيلي في الخطاب السابق بين الأمر والنهي، ومزج بينهما بطريقة مشوقة، يستقطب بها المخاطب ويهيمن عليه، ويجعله تحت سطوته في الحوار، مستجيبًا لما يسمع من توجيهات ووصايا من خبير في مجال التطفيل.

٥- الحجاج بمصاحبات الكلام الحركية والإشارية:(لغة الجسم):

لغة الجسم (body language) ينبه المصطلح إلى الدور الذي تؤديه الإشارات والحركات وتعبيرات الوجه والكيفيات المصاحبة للحدث اللفظي .... وما لها من وظيفة إقناعية، حيث يسعى المتكلم إلى الاستحواذ على أكبر عدد من حواس المتلقي لإشغاله وتشتيت تركيزه وهو بذلك يستطيع الهيمنة، ويصبح في موقف قوة يضمن له وضع المتلقي إزاء ردة فعل واحدة وهي الإذعان والقبول.

- فأغلق الباب دون، فاكترى سلمًا، ووضعه على حائط الرجل، وتَسَوَّر، فأشرف على عيال الرجل. (ص١١٦)
- فضحكوا منه وأعفوه من النفقة. (ص١١١-١١٢)
- فلما حضرت المائدة ، نظر إليها ثم قال.... (ص١١٢)
- فلما أكل وانثنى، وضع رجلا على رجل.... (ص١١٣)
- فتسوَّر الحائط.... (ص١١٧)
- دفع إليهم الكتاب.... (ص١١٨)
- أنوح على الباب حتى.... (ص١١٩)
- يتخلل بذلك الخلال الطويل. (ص١١٩)
- فاطَّلعت عليه والناس يأكلون. (ص١٢٢)
- وجعلت أجر سراويلي. (ص١٢٢)
- فدُفِع في صدره. (ص١٣٦)

لا يخفى هنا توظيف الأداء الحركي المصاحب للسلوك اللفظي لخدمة أغراض حجاجية، فقد تضمن خطاب الطفيليين- من خلال مواقف حجاجية شفاهية حية- الإشارة إلى تعبيرات الوجوه، وما يصاحب الخطاب الملفوظ من إشارات وإيماءات وسلوكيات

حركية، بيَّنت وعيهم بـــ"لغة الجسم" ودورها في الحجاج، فقد جمع خطابهم بين التعبير الحركي الإشاري، والتعبير اللغوي البياني، للوصول إلى الإقناع بما رغبوا فيه واستقروا عليه من التطفيل.

٦- الحجاج بتعدد أساليب الوصف والسرد والتمثيل:

عندما وصف الطفيلي تقوى الله قال: التي هي: الجانب العزيز والحرز الحريز والركن المنيع والطود الرفيع والعصمة الكالئة والجنة الواقية والزاد النافع وأن يستشعر خيفته في سره وجهره، ومراقبته في قوله وفعله، ويجعل رضاه مطلبه وثوابه ملبسه والقرب منه أربه، والزلفى لديه غرضه، ولا يخالفه في مسعاة قدم ولا يتعرض عنده لعاقبة وندم. (ص١٦٨)

وفي وصفه لطائفة التطفيل أطنب في سرد صفاتها بقوله: ومنهم الطائفة التي لا ترى شركة العِنان فهي تبذله إذا كان لها ، وتتدلى عليه إذا كان لغيرها؛ وترى أنَّ المنة في المطعم للهاجم الآكل، وفي المشرب للوارد والواغل؛ وهي أحق بالحرية، وأخلق بالخيرية؛ وأحرى بالمروءة، وأولى بالفتوة؛ وقد عُرِفت بالتطفيل، ..... (ص١٦٨)

ومثله أيضًا:"... حمل عليها حملة الحوت الملتقم، والثعبان الملتهم، والليث الهاصر، والعقاب الكاسر." (ص١٧٠)

ومن تعدد أساليب الوصف والسرد في خطاب التطفيل، ما جاء في وصف شخصية الطفيلي وردود أفعاله وسلوكه ومعاناته في سبيل الوصول للطعام: ".... يروض نفسه، ويغالط حسَّه، ويضرب عن كثير مما يلحقه صفحا، ويطوي دونه كَشحا؛ ويستحسن الصمم على الفحشاء، ويغمض عن اللفظة الخشناء؛ وإن أتته اللكزة في حلقه، صبر عليها في الوصول إلى حقه؛ وإن وقعت به الصفعة في رأسه، أغضى عنها لمراتع أضراسه؛ إن لقيه لاقٍ بالجفاء، قابله باللطف والصفاء، إذا ولج الأبواب، وخالط الأسباب ؛ وجلس مع الحضور، وامتزج بالجمهور ؛ فلا بد أن يلقاه المنكر لأمره ، ويمر به المستغرب لوجهه؛....." (ص١٧١)

والقيمة الحجاجية للسرد والتنويع في أساليب الوصف للفكرة الواحدة، أنه يمثل إلحاحًا على المتلقي في قبول الرأي والتسليم به ....وهو يدخل في باب التكرار بشكل غير مباشر.

ومنه أيضًا ".... لم يألك في ذلك إرشادًا وتوقيفًا، وتهذيبًا وتثقيفًا؛ ونعتًا وتبصيرًا، وحثًّا وتذكيرًا؛ فكن بأوامره مؤتمرًا، وبزواجره مزدجرًا؛ ولرسومه متبعًا، وبحفظها مطلعًا؛ ..." (ص١٧٢)

كما استخدم الطفيلي تقنية القص أحيانًا للتنويع في أساليب السرد كما في:

- " كان بالبصرة شيوخ طفيلية مِلاح يلبسون ...." (ص١٠٨)
- خرج طفيلي مع نفر في سفر، فعزموا أن يُخرِج كل واحد ....(ص١١١)
- كنت في دعوة لبعض أصحابنا، وفي القوم طفيلي .... (ص١٢٥)
- "كان لي جار طفيلي، وكان من أحسن الناس منظرًا، وأعذبهم منطقًا، وأطيبهم رائحة، وأجملهم لباسًا؛ فكان من شأنه ..... (ص١٢٦)
- يُذكر أن بعض الطفيليين مرض..... (ص١٣١)
- " ولقد بلغنا أن رجلاً من هذه العصابة...." (ص١٧١)

ومن أساليب التمثيل التي استعان بها الطفيلي:

- وجعلت أجرُّ سراويلي كأني أريد أعدو وأرمي بنفسي. (ص١٢٢)
- فانبسَطوا في ميدان المضغ ، ورفعوا قناع الحشمة، وألزقوا الأكتاف بالأكتاف كأنهم بنيان مرصوص، يأكلون ميمنة وميسرة وقلبا، وتدور أيديهم على الخوان شرقيا وغربيا، وتسمع للقوم في حلوقهم معمعة،... (ص١٥٠)

قدم الطفيلي هنا صورة تمثيلية للتزاحم حول خوان الطعام وكثرة الحركة فيه بالتزاحم في ميدان المعركة.

- يقدم الجدي أضلاع بلا لحم فوقه جلد وحوله خس وهِندبا، كأنه كوخ ناطور قد وقع خشبه وبقي القصب قائمًا. (ص١٥٠)
- والمجلس ليس فيه غناء ولا نبيذ كالبيت الخرب ....، والمجلس الذي يكون فيه النبيذ والغناء الطيب فهو كمثل من حدّث القوم بالحديث وهم يشتهونه. (ص١٦٢-١٦٣)

- "وآمره أن يكثر من تعاهد الجُوارِشنات [٣١]... وهو في تناولها كالكاتب الذي يقط أقلامه، والجندي الذي يصقل حسامه؛ والصانع الذي يحدد آلاته، والماهر الذي يصلح أدواته" (ص١٧٢)

٧- الحجاج بالتفصيل بعد الإجمال:

مما ورد عن بُنان في طبقات المعاشرين والمنادمين قوله: "لا تنادم حائكًا، ولا حجَّامًا، ولا خيَّاطًا، ولا مُكاريا، ولا دلّالا. فإن الحائك يقطع يومه وكلامه : عملنا بالثوب بهلوكين ....حتى يعد عشر بهاليك ..... وأمَّا الحجام فمنذ يقعد إلى أن يقوم فإنما هو في غيبة الناس.....والمكاري.....، الخياط .....، والدلال : بعنا دار فلان بكذا ، وبعنا جارية فلان بكذا ،....." (ص١٤٧-١٤٨)

جمع الخطاب بين بنيتين لغويتين؛ الأولى مجملة موجزة تضمنت نصحًا وتوجيهًا عامًا خلا من التفاصيل، فينشأ حوار داخلي بين الخطاب والمتلقي، الذي يبدأ في التساؤل حول سبب هذه النصائح، فتأتي البنية الأخرى تفصيلية تعليلية لما سبقها لذلك بدأت بقوله "فإن" لتفسير المجمل في البنية الأولى، فتجيب على ما دار في ذهن المتلقي، والبنيتان متكاملتان؛ لا تُفهم إحداهما بمعزل عن الأخرى، حيث تُفرغ الثانية محتواها الدلالي في الأولى.

- **ليس يجيء في أول الأوقات إلَّا جِلَّة الناس وسراتهم: كاتب، بَزَّار، وعطَّار، وسرّاج، وأنماطي، ونحوهم؛ فقعودك مع مثل هؤلاء فائدة، ... (ص ١٤٩)**
- **اثنا عشرة خصلة في الطعام ينبغي للمسلمين أن يتعلموها: أربعة منها فريضة ، وأربعة سنة، وأربعة أدب؛ فأما الفريضة: فالتسمية والمعرفة والرضا والشكر. وأما السنة: فالجلوس على رجله اليسرى، والأكل مما يليه، والأكل بثلاثة أصابع، ولعق الأصابع إذا فرغ. وأما الأدب: فغسل اليدين، وتصغير اللقمة، والمضغ الشديد، وقلة النظر في وجوه أصحابه. (ص١٤٢)**

---

[٣١] - الجُوارِشنات: نوع من الأدوية المركبة يقوي المعدة ويهضم الطعام، جمع "جوارش" وهي لفظة غير عربية من أصل فارسي.التطفيل للبغدادي حاشية ص ١٧٢.

٨- الحجـــاج المعـــلوماتي:

قدم الطفيلي في نصوص الوصايا –خاصة- قدرًا كبيرًا من المعلومات ذات الصلة بمجال اهتمامه الذي يسعى إلى الإقناع به، فنجده يسدي نصائحه الكثيرة في خطاب تغلب عليه صفة الإخبارية، التي تحظى بشغف المتلقي، وتضمن متابعته واهتمامه بتحصيل المعلومات عن الطعام وأنواعه وطرائق الوصول إليه والاحتيال فيه، ليس هذا فحسب؛ وإنما بطريقة مبتكرة ومتنوعة في وصف المعلومات وسردها وصياغتها بطريقة تعكس ثقافته الواسعة وإلمامه كبير بالمجال الذي يحاجج فيه، من أمثلة ذلك :

".... لا تأكل الكرمازك[٣٢] مطويًّا فإنه يعذبك؛ كله مشوّشًا حتى تقع عليه الأضراس، وهو أخف في المضغ.." (ص١٣٢)

" وقعودك على أول مائدة فيه خصال كثيرة محمودة؛ اعلم يا مغفل أنك تأكل رؤوس القدور وكل شيء كثير، والقدور ملأى، والماء بارد، والخَبـــَّاز نشيط، وربُّ المنزل فرح مسرور، وكل شيء من أمرك مستور، موضعك واسع، وأنت مع قوم كأنهم الدنانير..... فالأكل مع هؤلاء غنيمة وسلامة...." (ص١٥٠)

لذلك كانت "الإخبارية" أو الإعلامية إحدى معايير النصية السبعة التي حددها دي بوجراند، وهو لا ينظر إلى هذا المصطلح من حيث كونه يدل على المعلومات التي تشكل محتوى النص فحسب، بل من حيث يدل بالأحرى على الجدة، أو التنوع الذي توصف به المعلومات في بعض المواقف.[٣٣]

"... إذا دخلت عرسًا فلا تتلفت تلفت المريب ، وتخير المجالس، فإن كان العرس كثير الزحام فأمر وانه، ولا تنظر في عيون أهل المرأة ولا في عيون أهل الرجل، ليظن هؤلاء أنك من هؤلاء ، ويظن هؤلاء أنك من هؤلاء ، فإن كان البواب غليظًا وقحًا، فأبدأ به ومره وانهه من غير أن تعنفه، وعليك بكلام بين النصيحة والإدلال" (ص١٢٩)

ومنه أيضًا ما جاء في وصية أحد الطفيليين مرض، فقال له غلامه: أوصني فقال له موصيا: "....إذا قعدت على مائدة وعزبك الماء فغصصت بلقمتك ، فضع يدك اليمنى

---

[٣٢] –وهو لفظ فارسي معناه: الخبز الرقيق؛ فمن صفات الخبز الرقيق أنه يكون ثقيلا في المضغ، إذا أُكل مطويًّا. راجع: التطفيل للبغدادي حاشية ص ١٣٢.

[٣٣] – روبرت دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ترجمة: تمام حسان ص٢٤٩.

فوق رأسك وحركها كأنك تسوي كمتك، فإنها تنزل بإذن الله؛ .....ولا تصادفن من الطعام شيئًا فترفع يدك عنه وتقول: لعلي أصادف ما هو أطيب منه . قال: زدني؛ قال: إذا وجدت خبزًا فيه قلة، فكل الحروف، فإذا كان كثيرا فكل الأوساط ..... قال : زدني؛ ....."

(ص١٣١-١٣٣)

واستمر الموصي في سرد المعلومات، والمتلقي نشط متحمس، وهو يردد كلمة "زدني" مما يعكس شغفه بهذه المعلومات وطلبه المزيد منها، في تفاعل مع المعطيات المعرفية للخطاب، ويدل هذا على نجاح الطفيلي في توظيف المحتوى الدلالي والمعرفي للخطاب توظيفًا حجاجيًا، والصفة الإخبارية للخطاب تتوجه مباشرة لشغف المتلقي بمعرفة ما لا يعلمه فيبدو نشطًا تجاهه متجاوبا معه.

ومنه أيضًا ما جاء في العهد الذي كتبه أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي الكاتب – على سبيل الهزل – لابن عرس الموصلي عن عَلِيّكا وكان رجلاً كثير التطفيل: "..... وآمره أن يتأمل اسم التطفيل ومعناه ، ويعرف مغزاه ومنحاه ؛ ويتصفحه تصفح الباحث عن حظه بمجهوده ، غير القائل فيه بتسليمه وتقليده؛ فإن كثيرا من الناس قد استقبحه ممن فعله، وكرهه لمن استعمله ..... وأن يتتبع ما يعرض لموسري التجار ومجهزي الأمصار ، من وكيرة الدار ، والعرس والإعذار.... وأن يصادق قهارمة الدور ومديريها ، ويرافق وكلاء المطابخ وحمَّاليها؛ ..... أن يتعهد أسواق المتسوقين ، ومواسم المتبايعين.... وأن ينصب الأرصاد على منازل المغنيات والمغنين....أن يحرر الخوان إذا وُضِع، والطعام إذا نُقل؛ حتى يعرف بالحدث والتقريب، والبحث والتنقيب ؛ عدد الألوان في الكثرة والقلة ، وافتنانها في الطيب واللذة ؛ فيقدر لنفسه أن يشبع مع آخرها، وينتهي عند انتهائها ؛ ولا يفوته النصيب.....؛ ومتى أحس بقلة الطعام،.....أمعن في أوله إمعان الكيس في سعيه الرشيد في أمره..."(ص١٦٧-١٧٢)

وعلى الرغم أن العهد كتب على سبيل المزح والسخرية؛ فقد ضمنه الطفيلي قدرا كبيرًا من المعلومات تضمن له الإصغاء وانقياد الأسماع، وانتباه المتلقي وتحفزه المستمر للمتابعة. علاوة على أن النص كله يمثل خروجًا على المألوف في موضوعه ومحتواه؛ وقد وصفت الإعلامية التي تدل على ما يقدمه النص للمتلقي من جدَّة وخروج

عن المألوف في صياغة النص ومحتواه، بأنها مرتفعة؛ لأنها تتعامل مع الجانب الإبداعي أو الأدبي في النص.[٣٤]

٩- حجاج المأزق (الإحراج الاجتماعي):

يسعى الطفيلي من خلال خطابه إلى وضع صاحب الطعام في مأزق اجتماعي، لا يجد بدا للخلاص منه إلا بتحقيق رغبة الطفيلي وقبوله مكرهًا، حتى لا يحدث ما ينغص عليه أو يعكر عليه صفوه أمام ضيوفه، والمعروف أن صاحب العرس أو الوليمة يحرص كل الحرص أن يظهر بصورة لائقة اجتماعيًّا، وأن تمر المناسبة دون أي موقف يعرضه للإحراج ، ولما كان الطفيلي يدرك هذه الحقيقة، فقد سعى للإفادة من الفرصة واقتناصها في الوقت الذي لا يمكن لصاحب الطعام أن يرد فيه مطلبه ، ومن أمثلة ذلك:

قيل لطفيلي: كيف تصنع إذا لم يتركوك تدخل إلى عرس؟ قال: أنوح على الباب حتى يتطيَّروا مني فيدعوني. (ص١١٩)

والتطير أو التشاؤم عادة اجتماعية عربية، تجعل الشخص يتجنب بعض التصرفات التي يتشاءم من وجودها، فيسعى للتخلص منها سريعا، حتى لا تفسد عليه أمره.

"... قلت: أيما أحب إليك، تصعد إلينا بخوان كبير نأكل وننزل أو أرمي بنفسي راسية فيخرج من دارك قتيل ويصير عرسك مأتمًا؟ قال: وجعلت أجر سراويلي كأني أريد أعدو وأرمي بنفسي.

فجعل صاحب الدار يقول: اصبر ويلك لا تفعل؛ وجعل يعجلهم، ويقول: هذا مجنون؛ فأصعدوا إلينا خوانا، فأكلنا ونزلنا. (ص١٢٢)

جمع الطفيلي هنا بين الحجة اللفظية مخييرًا ومهددًا بقوله: "أيما أحب إليك ....." والحجة (غير اللفظية) أو الحركية في قوله:" وجعلت أجر سراويلي....." ليؤكد المأزق الذي صنعه بمهارة وحنكة تنطلي على الرجل، وقد نجح بالفعل في إقناعه بخطورة الموقف، فأسرع في تلبية مطلبه.

[٣٤] – حسام أحمد فرج: نظرية علم النص. رؤية منهجية في بناء النص النثري ص٧٠.

وإذا قعدت على مائدة وكان موضعك ضيقا، فقل للذي إلى جانبك: يا أبا فلان! لعلي قد ضيَّقت عليك؟ فإنه يتأخر إلى الخلف، ويقول: سبحان الله! لا والله موضعي واسع؛ فيتسع عليك موضع رجْل. (ص١٣١)

وهو بقوله: "يا أبا فلان لعلي قد ضيقت عليك" وضع الرجل تحت ضغط الحياء واللياقة الاجتماعية، مما جعله يفسح له في المكان ولو كان بحاجة إليه.

ومن نماذج خطاب الإحراج الاجتماعي لدى الطفيلي سؤال صاحب الطعام بقوله:" هل قلت أيدك الله لطباخك أن يصنع طعامك زائدًا على عدد الحاضرين، ومقدار المدعوين ؟ فقال: نعم!" (ص ١٧٢)

وفي مثل هذا الموقف لا تتوقع أن تكون الإجابة غير ذلك، مما يجعله على يقين أن الرد على هذا السؤال يضمن له تحقيق الهدف فيعقب على قول الرجل "نعم" بقوله "إنما تلك الزيادة لي ولأمثالي .....فقال: مرحبا بك، وأهلا وقربًا، والله لا جلست إلا مع علية الناس، ووجوه الجلساء والأناس..." (ص١٧٢)

١٠- الحجاج بالفـــكاهة والظرف:

قيل لبعض الطفيليين: أتحب أبا بكر وعمر؟ قال: ما ترك الطعام في قلبي حبا لأحد. (ص١١١)

خرج طفيلي مع نفر في سفر، فعزموا أن يُخرج كل واحد شيئا للنفقة، فقال كل واحد: عليَّ كذا. فلما بلغوا إلى الطفيلي، قال لهم: علىّ؛ وسكت، فقالوا له: فإيش عليك؟ قال: لعنة الله. فضحكوا منه وأعفوه من النفقة. (ص١١٢)

صحب طفيلي رجلا في سفر ، فقال له الرجل : امض فاشتري لنا لحما، قال: لا، والله ما أقدر، فمضى هو فاشترى، ثم قال له: قم فاطبخ؛ قال: لا أحسن؛ فطبخ الرجل؛ ثم قال له:قم فأثرد؛ قال: أنا والله كسلان؛ فثرد الرجل؛ ثم قال له: قم فاغرف؛ قال: أخشى أن ينقلب على ثيابي؛ فغرف الرجل؛ فقال له: قم الآن فكل. قال الطفيلي: قد والله استحييت من كثرة خلافي عليك؛ وتقدم فأكل.

(ص١١٣)

".... سمعت الجاحظ يقول: قلت لأبي سعيد الطفيلي: كم أربعة في أربعة؟ قال: رغيفين وقطعة لحم. (ص١١٣)

دخل طفيلي مرة على رجل، فقال له: يا هذا! قلت لك تجئ؟ فقال الطفيلي: قلت لي لا تجيء ؟ (ص١١٤)

دخل طفيلي مرة على قوم ، فقالوا له: ما دعاك أحد! قال: إذا لم تدعوني ولم أجيء أنا وقعت الوحشة. فضحكوا منه وقرَّبوه. (ص١١٤)

جاء بُنان الطفيلي إلى وليمة فأغلق الباب دونه ، فاكترى سلما، ووضعه على حائط الرجل وتسور، فأشرف على عيال الرجل وبناته، فقال له الرجل: يا هذا ! أما تخاف الله ؟ رأيت أهلي وبناتي !فقال: يا شيخ ! ﴿ الذَّارِيَاتِ الطُّورِ النَّجْمِ الْقَمَرِ الرَّحْمَٰنِ الْوَاقِعَةِ الْحَدِيدِ الْمُجَادِلَةِ الْحَشْرِ الْمُمْتَحَنَةِ الصَّفِّ الْجُمُعَةِ الْمُنَافِقُونَ التَّغَابُنِ ﴾ (هود: ٧٩)

فضحك الرجل، وقال له: انزل فكل. فقال له بُنان: يا هذا لا تسيء بالمشايخ الظن، واستغفر الله مما كان. (ص١١٧)

".... هل قلت أيدك الله لطباخك أن يصنع طعامك زائدًا على عدد الحاضرين، ومقدار المدعوين؟ فقال: نعم! قال: إنما تلك الزيادة لي ولأمثالي ....فقال: مرحبا بك وأهلا وقربًا ، الله لا جلست إلا مع علية الناس، ووجوه الجلساء والأناس؛ إذ قد ظَرُفت في قولك..... (ص١٧٢)

يتضح من النصوص أن الطفيلي جعل من الفكاهة مطيته للوصول إلى مأربه، مما يدل على إدراكه لطبيعة النفس البشرية التي تقبل بالدعابة والملاينة والملاطفة، ما لا تقبله بالجد والصرامة والتجهم، فهي تتوق للطرافة والظرف للمراوحة دفعًا للكلل والملل الذي تُصاب به في بعض الأحيان. فعندما يباغت الطفيلي صاحب الوليمة بالفكاهة والظرف ينقله نفسيًّا من حالة إلى حالة أخرى مختلفة، هذه الحالة تخدم الغرض الذي يخطط له ويسعى إليه.

١١- الحجاج بأساليب النداء:

للنداء قيمة حجاجية واضحة، حيث ينبه المخاطب لما يُوجه إليه من النصح والحث، ويحفز عقله للتجاوب مع معطيات الخطاب فتكون استجابته أقوى، وقد تنوعت أساليب

النداء فكان منها؛ النداء بالاسم والصفة والإشارة واللقب والكنية والقرابة، وغيرها مما يتوافق مع كل من؛ المنادِي، والمنادَى، وطبيعة الموقف، ونوع العلاقة بينهما.

- يا فتيان! (ص١١٢،١٢١)
- يا هذا! (ص١١٤،١١٦)
- يا بَوَّاب (ص١١٦)
- يا صاحب الدار! (ص١٢٢)
- يا أبا فلان (ص١٣١)
- يا شيخ! (ص١٣٣)
- يا وكيع (ص١٤٢)
- يا أخي! فدتك نفسي. (ص١٤٨)
- واعلم يا أخي (ص١٥٠)
- يا بُنان! (ص١٥٥)
- يا أخي ...يا أخي....يا أخي (ص١٥٧)
- يا سيدي.... يا بشر... يا سيدي (ص١٦٥،١٦٦)

١٢- الحجاج بأساليب التعليل والتركيب والشرط:

- إذا لم تدعوني ولم أجيء أنا وقعت الوحشة. (ص١١٤)
- وأعاود بعد الكِظة لأَغمه. (ص١٢٤)
- فإذا أكلت فانتشر، ولا تقعد فتثقل عليهم في مجلسهم. (ص١٤٤)
- إذا دعاك صديق لك فاقعد يمنة البيت؛ فإنك ترى كل ما تحب،... وأنت أول من يغسل يديه،... (ص١٥٢)
- إن أتوك بفُقَّاع فلا تكثر منه فإن كثرته تغثي.
- وإن حلفوا عليك فأدخلوك البيت فلا تقعد في الصدر؛ فإن القعود في الصدر قعود مغن أو مخْرف .
- إن كان في البيت فاكهة كثيرة ، فاجذب منها إليك لا تأمن أن تذهب وتبقى أنت بلا شيء.
- وإن كان في المجلس مغنية أو غلام حسن الوجه، فاتق الله في نفسك.

- وإذا دار النبيذ في الأقداح ، فانظر خير نبيذ ... فخذ قنينة واشرب وحدك ....وإذا كان ي المجلس خمر، اتق الله ولا تشرب منه.
- فإن خشيت من نفسك السُّكر فقم وأنت صحيح وعقلك معك.
- فاقبل وصيتي فإنك ترشد إن شاء الله. (١٥٦-١٥٧)
- لم يخل خطابه في هذه الوصايا من ذكر السبب أو العلة التي دفعته لهذه النصيحة والنتيجة المترتبة على الأخذ بها ، في أسلوب غلب عليه التركيب بالشرط.
- فمنهم مَن غلط في استدلاله.... فأساء في مقاله، ومنهم من
- وإذا استقراها وجد فيها من طرائف الألوان ..... ما لا يجد عند غيرهم .
- أن يصادق قهارمة الدور....فإنهم يملكون من أصحابهم أزِمَّة مطاعمهم...
- وإذا عدَّت هذه الطائفة أحدا من الناس من خلانها .... سعد بمرافقتها، وحظي بمصادقتها. (ص١٦٩)
- يراعي وقت مصيره إليها ليتبعه، ويكمن له ليصحبه ويدخل معه. (ص١٧٠)
- يستعمل مع المخاطِب له الملاينة؛ ليرد غيظه، ويفل حده،. (ص١٧١)

١٣- الحجاج بأساليب القصر والحصر:

- إنما تريد أكلت ما فيها . (ص١٠٩)
- فإنما هو في غيبة الناس. (ص١٤٧)
- إنما شرحت لك لتفهم. (ص١٥٠)
- فإنما تلك الزيادة لي ولأمثالي. (ص١٧٢)
- ما صُنع الطعام إلا ليؤكل .
- وما وضعت الموائد إلا لتبذل، ولا نجدت المنازل إلا لتُدخل (ص١٢٤)
- ما من أحد من الجماعة إلا وهو يظن أنك تعرّض به دون صاحبه. (ص١٢٧)
- ليس يجيء في أول الأوقات إلَّا جِلَّة الناس وسراتهم. (ص١٤٩)
- فليس يُقدّم – يعني إليهم- إلاّ شَرُّها. (ص١٥٠)
- لم يُسأل شيئًا إلا جاد به. (ص١٦٢)

- وليس يبدؤك بما تكره إلّا من بخل أو سفل أو من في نسبه شيء.(ص١٦٣)
- حين لا ينفع إلّا مثله من الأزواد. (ص١٦٨)
- فما هو إلا أن يتجاوز تب الأبواب ...حتى يحصّل محصَّلا قل ما حصله أحد قبله ، فانصرف عنه ؛ إلا ضلعا من الطعام ، نزيفًا من المدام.(ص١٧٠)

تكمن أهمية أسلوب الحصر في أن المتكلم يركز من خلاله اهتمام المتلقي على موضوع بعينه، يخدم المجال الذي يُحاجِج فيه، مما يدفع عن نفسه التشتت، وكل ما يصرفه عن التركيز في الفكرة التي يطرحها، ويجعلها وحدها دون سواها في بؤرة اهتمامه، فيسلط عليها الضوء من خلال تفردها واحتلالها مكانة خاصة.

١٤- الحجـــاج بالقـــسم:

يُعد القسم من مؤكدات الخطاب، التي توظَّف لدفع الشك والارتياب من نفس المتلقي، وتهيئ نفسه للتصديق والقبول لما يُعرض عليه. وهو من الشارات الحجاجية البارزة التي تعلن عن وجود دلالات ضمنية، غير ظاهرة في المنطوق.

- لا، والله ما أقدر. (ص١١٣)
- أنا والله كسلان. (ص١١٣)
- قد والله استحييت من كثرة خلافي عليك. (ص١١٣)
- قالوا: ومن تكون بالله؟ قال: أنا ابن دَرَّاج. (ص١٢١)
- فقلت: لا والله؛ فخرجت... (ص١٢٥)
- والله لإن تبعني لأفضحنَّه. (ص١٢٦)
- أَنِفت لك والله أبا عمرو من هذا الكلام. (ص١٢٧)
- لا والله ما يزهد في هذا عاقل. (ص١٢٨)
- هو والله من طعام أهل الجنة. (ص١٥٥)
- والله لا جلست إلا مع علية الناس. (ص١٧٢)

١٥- الحجاج بأسلوب الإغراء والتحذير:

- الزم هذه الطبقة لا يزايل سوادك بياضهم فتهلك. (ص١٤٩)
- لا تولع بواحد منهم والزم العافية. (ص١٥٦)
- عليك بخبر حسن، أو حديث حسن..... (ص١٥٧)

- فإياك ثم إياك أن تتأخر. (ص١٤٩)
- إيّاك إيَّاك أن تسكر. (ص١٥٧)
- وإيّاك يا أخي أن تسكر. (ص١٥٧)

في أسلوب الإغراء والتحذير إثارة وتشويق وتحفيز للمتلقي لضمان التجاوب مع معطيات الخطاب الذي تكفل بتوضيح العواقب كما في حال عدم الامتثال للتحذير مثل ما جاء في:" وإيّاك إيَّاك أن تسكر، وأن يرى القوم منك زلة أو كلمة غلط، فيحتكم بها عليك؛ ولعلك مستور في جيرانك، فتخرج وقد انهتك سترك عندهم؛ ولعلك إمام أومؤذن، فهو الفضيحة التي لا تجبرها أبدًا..." (ص١٥٧)

١٦- الحجاج بأسلوب التخيير:

- ما أدري لمن أشكر منكم ، لكم إذ أجبتم دعوتي، أم لهذا الذي تجشم من غير دعوة؟ (ص١١٥)
- أُي شيء أَحب إليك أَن يتفق؟ (ص١١١)
- أيُّما أحب إليك، تصعد إلينا بخوان كبير نأكل وننزل أو أرمي بنفسي.... (ص١٢٢)
- إن أردت النقاوة عشرة بدرهم . (ص١٢٣)

استراتيجية التخيير هنا تضع المخاطب أمام أمرين، الاختيار بينهما محسوم سلفًا من قبل المتكلم، إذ أن أحد الأمرين يمثل اختيارًا صعبًا وقاسيًا على النفس أن تذهب إليه. فلم يبق لها إلا الاضطرار والتسليم والقبول بالاختيار الذي سعى المتكلم إلى إلزامه به، وإن بدا أن الأمرين مطروحان لاختيار المتكلم.

١٧- الحجاج بأسلوب التفضيل:

- كان من أحسن الناس منظرًا، وأعذبهم منطقًا، وأطيبهم رائحة، وأجملهم لباسًا. (ص١٢٦)
- فلأن أموت شبِعًا وريًّا أحب إلي من أن أموت غَرَثًا وجوعًا. (ص١٢٨)
- لعلي أصادف ما هو أطيب منه. (ص١٣٢)
- وهو أخفّ في المضغ. (ص١٣٢)
- طعام العرس أطيب من ريح طعامنا. (ص١٤١)

- ما أقل علمك! (ص١٤٢)
- التمكن على المائدة خير من ثلاثة ألوان. (ص١٤٣،١٤٤)
- والسميذ الأبيض أحلى من السميذ الأصفر. (ص١٤٤)
- وفؤاده أخلى من فؤاد أم موسى. (ص١٥٠)
- وأطيب ما يكون لحم الحمل. (ص١٥٣)
- عُصعص عنز خير من قدر باقلاء. (ص١٥٣)
- نقصان لونين وماء بارد فهو أحب إليَّ. (ص١٥٦)
- وهي أحق بالحرية، وأخلق بالخيرية؛ وأحرى بالمروءة، وأولى بالفتوة؛ وقد عُرِفت بالتطفيل.... (ص١٦٨)
- والتجنب لها أجدى، والازورار عنها أرجى. (ص١٧٠)

١٨- الحجاج العاطفي (بأسلوب الدعاء) :

- اللهم لا تجعل البواب لكازًا في الصدور، دَفَّاعًا في الظهور؛ طرَّاحًا للقلانس؛ هب لنا رأفته وبشره وسهل لنا إذنه. (ص١٠٨)
- ...غرة مباركة موصول بها الخصب معدوم معها الجدب... جعلك الله في البركة كعصا موسى وخوان إبراهيم ومائدة عيسى. (ص١٠٩)
- فديتكم؛ من يصبر على السميذين الأبيض والأصفر.... (ص١٢٨)
- مَنَّ الله عليك بصحة الجسم، وكثرة الأكل، ودوام الشهوة، ونقاء المعدة؛ ومتَّعك بضرس طحون، ومعدة هضوم، مع السعة والدعة والأمن والعافية.(ص١٣١)
- عافاك الله. (ص١٣٤)
- فدتك نفسي! (ص١٤٨)
- متعك الله بسعة الصدر، وطَيّب الأكل والصبر على المضغ، إنها دعوة مغفول عنها. (ص١٥١)
- إنه أصلحك الله مشاع غير مقسوم. (ص١٥٥)
- سَلَّمنا الله وإياك يا أخي من آفات الدنيا والآخرة. (ص١٥٧)
- فصلوات الله على هؤلاء وعلى من ولدهم. (ص١٦٣)
- هذا عافاك الله رجل يستحق أن يسمع له ويطاع. (ص١٦٤)

- أطال الله بقاء الأمير! (ص١٦٥)
- أعاذنا الله من مثل مقامهم، وعصمنا من شقاء جدودهم. (ص١٧١)
- أعزك الله. (ص١٧١)
- أيدك الله. (ص١٧٢)

١٩- التوظيف الحجـــاجي للعـــدد والوقت والثمن:

لم يخل استخدام الطفيلي للأعداد والأوقات والأثمان من التوظيف الحجاجي، لاستدعاء المجال الذي يحاجج فيه وهو الطعام للتذكير به، والإصرار على جعله حاضرًا نشطًـا في ذهن المتلقي، من أمثلة ذلك:

- كم أربعة في أربعة؟ رغيفين وقطعة لحم. (ص١١٣)
- كم اثنان في اثنين؟ أربعة أرغفة. (ص١١٤)
- كم أربعة في أربعة؟ قال: ستة عشر رغيفًا. (ص١١٤)
- كل منها لقمة أو لقمتين أو ثلاثة. (ص١٥٤)
- أَزْوُج وثَلِّث....فأكل أكل اثنين أو ثلاثة. (ص١٥٤)
- اشرب خمسة أقداح، ستة أقداح، سبعة أقداح ولا تسكر.(ص١٥٧)
- انتظرته مقدار ما يأكل إنسان رغيفًا. (ص١١٤)
- أكلت وخرجت بزَلة حسنة، فلقيني إنسان، فاشتراها مني بدينار.(ص١٤٥)
- وعملنا بالثوب بهلوكين، وعملنا فيه ثلاثة بهاليك وأربع وخمس، حتى يعد عشر بهاليك. (ص١٤٧)
- "... أنت ناقد الحديث وفقيه العراق تأكل باذنجان يباع منه بدانق، وتدع صدور الدجاج الذي يُباع دجاجة بدينار؟ ما أقل علمك!" (ص١٤٢)
- أكرينا بدانق، أكرينا بدانقين، أكرينا بنصف درهم، فلا يزال أكرينا إلى درهم وأكثر. (ص١٤٨)
- وأنت مع قوم كأنهم الدنانير. (ص١٤٩)
- "فإن في كل يوم نُصيب الشِّواء بدانق". (ص١٥٤)
- "كل ولا تقصر، فإن قيمة هذه ثلاثة دنانير، ولا تأكل إلا ما له قيمة". (ص١٥٤)

٢٠- إلى أي مدى نجح الطفيلي في تأسيس موقفه الاجتماعي:

يمكن القول -من خلال كل ما سبق- أن الطفيلي، مستعينًا بإمكانات اللغة وأدواتها قد نجح في إقناع صاحب الطعام أن يحصل منه على ما يريد في أغلب الأحيان، وإن كان مسعاه دون ذلك في مرات قليلة، حيث لم تبلغ به وسائله في سبيل تحقيق غايته المبلغ الذي يرضيه، فأوصدت في وجهه الأبواب ورجع مطرودًا، ومضروبًا، وقد أشار خطابه إلى ذلك كما في:

".... فقال له صاحب العرس: من أنت؟ قال: أنا الذي قال فيّ الشاعر:

نَزُوركمْ لا نُكافيكُمْ بِجفْوتِكم إنّ المُحِبَ إذا لم يُسْتَزر زَارا

فقال له صاحب البيت: زارا، لا أدري ما هو، قم أخرج من بيتنا" (ص١١٥)

ومنه " جاء بُنان إلى وليمة، فأُغلِقَ الباب دونه" (ص١١٦)

ومنه أيضًا:

أَغلقَ عَنّا بابه ثُمّ حَلَف لا يُدْخِلُ البَوّابُ إلا مَنْ عَرَف (ص١٣٦)

"من أي شيء طال رأسك؟ قال: من مزاحمة الأبواب؛ أي: يعصرونه مع الحائط بالأبواب (ص١٢٢) "

وبرغم الحجة التي ذكرها الطفيليُّ، والتعليل الذي علل به موقفه كما جاء في قوله شعرًا:

ولمَّا رأيتُ النَّاس ضنُّوا بمالهم فلم يَكُ فيهم مَن يَهِشُ إلى الفضلِ

ولم أَرَ فيهم داعيًا لابنِ فاقةٍ يَحنُّ إلى شُربٍ ويَصْبُو إلى أكْلِ

رَكِبتُ طُفيليًّا وطَوَّفتُ فِيهِمُ ولم أكتَرثْ للحلمِ والعلمِ والأصْلِ

فإنه لم ينجح في تأسيس موقف اجتماعي مؤيد لهذه الظاهرة (التطفيل) في المجتمع العربي، ولم يحرز قبولاً أو يحصل على اعتراف من المجتمع، الذي مازال رافضًا لهذا السلوك ويراه منافيا للمروءة والعزة والتعفف، والدليل على ذلك الرفض نراه في كلام الطفيلي نفسه، فيقول:"...ما في الدنيا أحسن من صنعتي، أنا أطفل منذ ثلاثين سنة ما أسلموا إليَّ صبيًّا قط..." (ص١٦١)

ولا أدل من تلك القصيدة في رثاء بُنان الطفيلي عند موته والتي مطلعها:

يا أيُّها المَيْت الذَّميمُ لدى الأقارب والأباعد (ص١٥٨)

تبين القصيدة وغيرها من القصائد التي قيلت في رثاء بعض الطفيليين الموقف العام من الطفيلي، ومن التطفيل.

أشَدُّ من ذلك أن الطفيلي نفسه لم يسمح للآخرين بالتطفل على وليمة أعدها، بل وأنكر عليهم مسعاهم في سبيل ذلك " عمل طفيلي وليمة، فدخل عليه طفيليان، فعرفهما، فأصعدهما إلى غرفة له حتى أطعم من أراد، ثم نزل بهما، فقال لهما: لا أصغر الله ممشاكما. فأخرجهما ولم يأكلا من الطعام شيئًا" (ص١٢١)

ولبعض الطفيليين دعاء يبين ما كانوا يتعرضون له من سوء المعاملة وهو:" اللهم لا تجعل البواب لكازًا في الصدور،دَفَّاعًا في الظهور؛ طراحًا للقلانس؛ هب لنا رأفته وبشره وسهِّل لنا إذنه." (ص١٠٨-١٠٩)

ومن الألفاظ التي تؤكد النبذ الاجتماعي والتهميش الذي تعرض له ما يأتي:

"السب، اللكز، فظًا، غليظًا، وقحًا، امتهان، احتال، عبيد البطون، الجفاء، الشره، النهم، الصفعة، المخاشنة، كرهه، أبى، مرقته العيون، صك، غلظ، استقبحه، أساء، الجفاء، أنوح، لم يجبني، لم تنظر إليّ،... " وجود هذه الألفاظ وكثرة تكرارها، يمثل نوعًا من الإلحاح والتأكيد على كثرة المعاناة والامتهان الذي يتعرض له الطفيلي في مهمته من ناحية، كما يمثل صورة الطفيلي المرفوضة والمنبوذة اجتماعيًّا من ناحية أخرى.

الخـــاتمة والنتائج:

الموضوع الرئيس في خطاب الطفيليين هو "الطعام" ، حيث بذل الطفيلي نفسه وكرامته مؤسسًا لموقف اجتماعي منبوذ بين مختلف الفئات والشرائح الاجتماعية في المجتمع العربي، مستجيبًا لشهوة الطعام، حيث تؤكد نصوص التطفيل، أنه ليس مدفوعًا بالجوع والحاجة، فهو شخص يتلذذ باقتحام المناسبات والولائم دون رغبة أو دعوة من أصحابها، عاشق لكل صنوف الطعام، يتصرف بنهم وشراهة تجاه الولائم والموائد والأعراس، يتحسس أخبارها ويحتال في اقتحامها، جند نفسه وصب اهتمامه على التمتع بلذة الطعام، متسلحًا في سبيل ذلك بالأدوية والعلاجات التي تساعده على الهضم.

وكم من المرارات تجرعها في رحلته للظفر بمائدة أو عرس وكم ناله من اللكز والضرب على يد البوابين والقوام على المنازل والمناسبات، تحمَّل السب والشتم والطرد والضرب، وقد سلك مسلك الحيلة والدهاء، كلما أُوصدت في وجهه الأبواب، فما أقساه من طريق وما أصعبها من رحلة على النفس، إن هي استحضرت عزتها وكرامتها التي امتهنت مقابل هذا الظفر.

وقد سلك الطفيلي كل مسلك في إيراد الحجج، للتأكيد على موقفه، مستدلاً على صحته بالنصوص الدينية التي يحفظها، فأحسن توظيفها في خطاب عكس سعة ثقافته وتعدد روافدها، من مجالات متنوعة منها؛ الدين والأدب واللغة، تسلَّح بها في محاجَّة خصومه، وإفحامهم.

أبدى الطفيلي وعيًا بمقتضيات حضور الولائم والمناسبات، خاصة في جانب المظهر واللباس والعناية الفائقة بالأناقة والهندام، حيث أشار خطابهم إلى عنايتهم الكبيرة بهذا الجانب، متعمدا أن يبدو في نظر المدعوين أليقهم بالمناسبة، حريصًا أن يضمن لهيأته التآلف والانسجام مع علية القوم، مما يؤكد عدم احتياجهم المادي، وأن تطفلهم على الولائم والمناسبات كان موقفًا اجتماعيًا مقصودًا، لم يدع إليه فقر أو حاجة.

بدا الطفيلي متسقًا مع نفسه، منسجمًا معها قولا وعملا؛ فكل خطابه دعوة إلى التطفيل، مغريا به وناصحا، في الوقت الذي يمارسه فيه ممارسة فعلية، فخلا بذلك فعله وقوله من الوقوع في التناقض الذي يبطل الحجاج ويدحضه.

أوضح الخطاب العلاقة السلبية بينه وبين صاحب الوليمة، حيث وصفه بالبخل والحسد، وأنه يفوز منه بالطعام عنوة وكرهًا واحتيالاً. كما أوضح أن المهمة لم تكن سهلة، حيث بذل فيها كرامته وأراق ماء وجهه، لما لاقاه من المهانة والنفور وغلق الأبواب دونه.

نجح الطفيليُّ في انتقاء أساليب وبنيات لغوية أسهمت في إبراز وتقوية موقفه الحجاجي من التطفيل. كما جمع بين التعبير الحركي الإشاري، والتعبير اللغوي البياني، للوصول إلى الإقناع .

سعى الطفيلي في خطابه الحجاجي إلى تحقيق النتائج الآتية:

- تقديم أكبر قدر من الحجج اللغوية والتنسيق بينها لتحقيق هدفه في الحياة، وهو الظفر بأصناف الطعام مجانًا، من خلال اقتحام الموائد دون دعوة.
- استمالة العقول وإقناع الناس، لتأسيس موقف اجتماعي يقبل بالتطفيل، ويقر بمشروعيته.

وأخيرًا يمكن القول أن الحجاج اللغوي، أحد المسارات اللغوية التداولية، وهو من الأسس النظرية المهمة في التعامل مع النصوص على اختلاف أنواعها، لما تسعى إليه هذه النصوص من غايات الإقناع والتأثير، وهو يرتكز على القيمة التداولية للغة، لأنه يتم من خلال ممارسات لغوية تواصلية بين طرفين، يحاول كل طرف فيها أن تكون الحجة له لا عليه، وأن ينجح في إقناع الآخر بمواقفه وآرائه، وفي تفنيد وجهة النظر المقابلة وإبطالها.

المصادر والمراجع:

١-أبو بكر العزاوي: الحجاج في اللغة، بحث منشور ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته د.حافظ إسماعيلي علوي(عالم الكتب الحديثة- إربد، ٢٠١٠م)

٢-أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج (الدار البيضاء- المغرب،٢٠٠٦م)

٣-أبو بكر العزاوي: الحجاج والمعنى الحجاجي، بحث منشور ضمن كتاب:(التحاجج طبيعته، ومجالاته، ووظائفه، تنسيق: حمو النقاري- الدار البيضاء،٢٠٠٦م)

٤-أبو الوليد الباجي: المنهاج في ترتيب الحجاج، تحقيق: عبد المجيد تركي(دار الغرب الإسلامي- بيروت، ٢٠٠٠م ط٣)

٥-أبو بكر البغدادي: التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم (دار ابن حزم- ١٩٩٩م)

٦-أوستن: نظرية أفعال الكلام العامة(كيف ننجز الأشياء بالكلام)،ترجمة: عبد القادر قنيني (أفريقيا الشرق،١٩٩١م)

٧-بلقاسم دفة: استراتيجية الخطاب الحجاجي: دراسة في تداولية الإرسالية الإشهارية العربية (مجلة المخبر- أبحاث في اللغة والأدب الجزائري- جامعة بسكرة- عدد١٠، ٢٠١٤م)

٨- جميل حمداوي: نظريات الحجاج (نسخةPDF على :www.alukah.net)

٩-جميل عبد المجيد: البلاغة والاتصال(دار غريب – القاهرة ، ٢٠٠٠م)

١٠- حامد ناصر الظالمي، عايد جدوع حنون: مفهوم الحجاج (مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية- العراق- مج.٣٨-ع—٣،٢٠١٣م)

١١- حسام أحمد فرج: نظرية علم النص. رؤية منهجية في بناء النص النثري(مكتبة الآداب–القاهرة، ٢٠٠٧م)

١٢-خلية البحث التربوي: الحجاج في درس الفلسفة (إفريقيا الشرق- المغرب،٢٠٠٦م)

١٣-روبرت دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ترجمة: تمام حسان(عالم الكتب- القاهرة، ٢٠٠٧م)

١٤-سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، بنياته وأساليبه (عالم الكتب الحديث، ٢٠٠١م)

١٥-شاهر لحسن: علم الدلالة السمانتيكية والبراجماتية في اللغة العربية (دار الفكر للطباعة والنشر- الأردن، ٢٠٠١م)

١٦-شاييم برلمان: الحجاج، ترجمة: محمد أسيداه (مجلة فكر ونقد – المغرب- ع٨٣، ٢٠٠٦م)

١٧-شكري المبخوت بحث بعنوان: نظرية الحجاج في اللغة، منشور ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، فريق البحث في البلاغة والحجاج، إشراف: حمادي صمود (كلية الآداب-منوبة- تونس،١٩٩٨م)

١٨-صابر الحباشة: التداولية والحجاج. مداخل ونصوص(دمشق – سوريا، ٢٠٠٨م)

١٩-صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص(عالم المعرفة- الكويت، العدد١٦٤، ١٩٩٢م)

٢٠-طه عبد الرحمن : اللسان والميزان أو التكوثر العقلي (المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء- المغرب،١٩٩٨م)

٢١-ابن عاشور: التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور(الدار التونسية للنشر- تونس،١٩٨٤م)

٢٢-عبد الحليم بن عيسى: البيان الحجاجي في القرآن الكريم "سورة الأنبياء أنموذجًا" (مجلة التراث العربي- اتحاد الكتاب العرب- دمشق-ع١٠٢ السنة(٢٦)،٢٠٠٦م)

٢٣-عبد العزيز السراج: التواصل والحجاج.أي علاقة، بحث منشور ضمن كتاب:الحجاج مفهومه ومجالاته(عالم الكتب الحديث- إربد، ٢٠١٠م)

٢٤-عبد الله صولة: الحجاج. أطره ومنطلقاته من خلال "مصنف في الحجاج". الخطابة الجديدة لبيرلمان وتيتكا، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم،إشراف: حمادي صمود (كلية الآداب-منوبة-تونس،١٩٩٨م)

٢٥-عز الدين الناجح: المفهوم من خلال الملفوظ الإشهاري (مجلة الخطاب- دورية أكاديمية- جامعة تيزي وزو- العدد٢،٢٠٠٧م)

٢٦-علي محمد علي سلمان: كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج(بيروت، ٢٠١٠م)

٢٧-محمد سالم الأمين: مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة (مجلة عالم الفكر- ع٢-يناير/ مارس،٢٠٠٠م)

٢٨-محمد سالم الأمين: الحجاج في البلاغة المعاصرة. بحث في بلاغة النقد المعاصر (دار الكتاب ،٢٠٠٨م)

٢٩-محمد الولي: مدخل إلى الحجاج أفلاطون وأرسطو وشاييم بيرلمان(مجلة عالم الفكر- عدد٢، مجلد(٤٠)،٢٠١١م)

٣٠-يمينة تابتي: الحجاج في رسائل ابن عباد الرندي(دورية أكاديمية محكمة- منشورات مخبر تحليل الخطاب- جامعة تيزي وزو- ع٢ مايو٢٠٠٧م)